الباب الثالث

obeikandl.com

الرواد المصريون القدماء[1]

زعم المصريون الاقدمون ان بلادهم تشمل المسكونة كلها غير ان هـذا الوهم لم يكن ليبقى راسخاً في اذهانهم بعد ان امتدت التجارة الى بلادهم من البلدان المجاورة لها وسار ملوكهم الفاتحون شمالاً وجنوباً ودوخوا الاقطار البعيدة فعلموا حينئذ بوجود بلدان اخرى وشعوب آخرين

ويراد بالروّاد الآن الرجال الذين يجوبون البلدان المعروفة لزيادة العلم بها او يكتشفون البلدان المجهولة للوقوف على احوالها مما يتعلق بالعلم . اما روّاد ذلك الزمان فهم اول من اكتشف مجاهل الارض وابلغ نور التمدن اليها

ويتعذر التمييز بين التاريخ المصري القديم وما يتخلله من الاساطير الخرافية لكن الباحثين فيه قد اثبتوا بعد طول التنقيب ان المصريين القدماء استخرجوا الفيروز والنحاس من مناجم برية سينا في عهد الدولة الرابعة (منذ ٥٠٠٠ سنة) وان الملك صنفرو اول ملوك تلك الدولة انشأ هناك مستعمرة مصرية . وقد اكتشف المسيو بنديت في تلك المناجم رسم الملك سوزيري من ملوك الدولة الثالثة فاثبت ان ذلك الملك اول من وسّع تخوم مصر وعرّف اهل بلاده باهالي البلدان المجاورة لها . ويظهر انه هو الذي بنى السور بين اصوان وجزيرة الفنتين وبنى الهرم المدرج في دهشور مدفناً له

وقد وجد عند سفح جبل سينا صحيفة من الحجر عليها صورة صنفرو يقتل رجلاً بفأسه وتحتها كتابة تعريبها « الملك القدير ذو التاجين ملك الجنوب والشمال سيد الحق هورس الذهبي المعطي الحياة والسعادة الذي يشرح القلوب »

والظاهر انه كان لهذا الملك سلطان عظيم على رعاياه فدامت عبادته في مصر الى زمن البطالسة . وهو اول من وجد في آثاره اسماء النساء كاسم الملكة مرتيتف واسم ابنته نفرتكو وهما موصوفتان وصفاً رقيقاً

ووجد على صخور سيناء اسم خوفو من ملوك الدولة الرابعة وسكوري من ملوك

---

(١) لحضرة الدكتور بونولا بك سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية وهي خطبة تلاها في تلك الجمعية ولخصها بالعربية نسيم افندي برباري

الدولة الخامسة ويقال انهما كانا يرسلان رجالاً من قبلهما لادارة الاعمال في تلك المناجم

وشرع المصريون الاقدمون في الاسفار من عهد الدولة السادسة ، غير انه يظهر من وجود خشب الارز وبعض المعادن بين آثارهم القديمة ، انهم كانوا يعرفون بوجود بلدان اخرى غير بلادهم قبل ذلك الوقت بزمن طويل . ولا ريب ان امراء جزيرة الفنتين كانوا يتعدون الحدود الجنوبية ، وان الطريق بين اصوان ورأس بناس (على البحر الاحمر) كانت مطروقة منذ عهد قديم، وان السفن المصرية كانت تمخر البحر الاحمر حينئذ . وكانوا يسمون سكان البلاد التي جنوبي اصوان باسم توكنس اي الرماة والذين الى جنوبهم باسم المتلعثمين او الاعاجم لانهم لم يكونوا يتكلمون اللغة المصرية. وقالوا ان وراء ارض المتلعثمين الارض المباركة التي تفيض الخيرات،ووراءها ارض الارواح وشجرة الآس حيث تقيم الآلهة ووراء الجميع البحر الجنوبي الذي يجري منه النيل وتطفو عليه الجزر . ولهذا البحر غرائب ونوادر بقيت شائعة في مصر زمناً طويلاً وهي تتضمن ما كان يعتقده المصريون الاقدمون في بلاد الجنوب ايام حكم الآلهة على الارض حسب زعمهم

ومن اساطيرهم القديمة رواية الاخوين المشهورة وهي من اقدم الروايات المصرية الغرامية وخلاصتها ان اخوين كانا يعملان معاً في الحقل اسم اكبرهما انبو واسم اخيه بطو . وذهب بطو الى البيت لاحضار البذار فرأته امرأة اخيه وراودته عن نفسه فامتنع وعاد مسرعاً الى اخيه . وعاد انبو في المساء الى بيته فشكت امرأته اليه اخاه ظلماً وعدواناً فاستلّ سكيناً ورصد له خلف الباب قاصداً الفتك به غير ان البقرات التي كانت سائرة امام بطو انبأته بالخطر فهرب وتبعه اخوه فجازا الحقول والاودية حتى انتهيا الى نهر فعبره بطو اولاً ثم فاض النهر بغتة وكان مشحوناً بالتماسيح فلم يتمكن انبو من الخوض فيه. ووقف بطو على الشاطئ الآخر قبالة اخيه واثبت له انه بريء مما اتهم به واخبره انه عازم ان يسير في النهر جنوباً حتى يصل الى البلاد التي فيها شجرة الآس و يضع قلبه عليها فيضمن لنفسه الخلود ما دام قلبه هنالك

وسار بطو الى تلك الارض المباركة وجعل يصيد الوحوش البرية وبنى لنفسه بيتاً والتقى بمجمع الآلهة فصنعوا له « امرأة لا اجمل منها في الدنيا لان روح الآلهة كانت فيها » . وحدث ان غديرة من شعرها وقعت في النهر وجرت فيه حتى وصلت

الى حيث كان النساء يغسلن ثياب فرعون فصار للثياب رائحة عطرية منها فدعا فرعون جميع السحرة وسألهم عن امرها فقالوا انها من شعر ابنة « فراهرماكس » وان فيها روح كل الآلهة

فارسل فرعون رسلاً كثيرين الى كل الجهات للتفتيش عنها فعادوا بخفي حنين الا الذين ذهبوا الى الارض المباركة فان بطو قتلهم كلهم وابقى واحداً منهم ليخبر مولاه بما حل بهم . فارسل فرعون الرماة والمركبات وارسل معهم امرأة معها كثير من الجواهر لتستميل قلب بنت الآلهة فتمكن من احضارها الى مصر

وقد كتب هذه الخرافة رجل في عهد الدولة التاسعة عشرة (منذ ٣٣٠٠ سنة) لكنها كانت متداولة قبل ايامه ومفادها ان الى الجنوب من بلاد مصر بلاداً خصبة فيها شجرة الآس دليل الخلود. وان تلك البلاد يرويها النيل الذي حمل غديرة زوجة بطو الى مصر وان الوصول اليها سهل ميسور لان بطو بلغها وحده ورسل فرعون دخلوها . ويستدل منها على ان فرعون كان اذا اراد تحقيق امر متعلق ببلاد غريبة او مجهولة يستشير السحرة ثم يرسل الرسل والتجريدات المسلحة وكانت هذه التجريدات تركب احياناً طريق القارظين فلا تعود وترجع احياناً اخرى باخبار واحاديث لا اثر لها من الصحة. وقد تفلح في ما ارسلت له ثم تبالغ في وصف ما لقيته من المخاطر وما رأته من الغرائب فنشأ عندهم نوع من الجغرافية الخيالية ولذلك امثلة كثيرة في القرون الوسطى الحديثة فقد ادعى بعضهم انه رأى جزيرة في البحر المتوسط تتبع سفن لويس التاسع ملك فرنسا وادعى آخر انه لمس باصبعه ابواب الجنة في الشرق الاقصى وامثال ذلك كثيرة

وقد اكتشف العالم غولنشف قصة مصرية ينتهي تاريخها الى الدولة الثانية عشرة ومفادها ان مصرياً ركب سفينة كبيرة طولها مئة وخمسون ذراعاً وعرضها اربعون ذراعاً ومعه ١٥٠ نوتياً من نخبة رجال مصر وصعد بها في النيل حتى انتهى الى بلاد المتلعثمين التي تلي بلاد الرماة . وهناك ثارت عليه زوبعة اغرقت السفينة بمن فيها ولم ينج منهم سوى راوي هذه القصة فتعلق بقطعة من الخشب وظلت الامواج تتقاذفه حتى القته على جزيرة « لم يجد له فيها مؤنساً سوى قلبه الشجاع » وكانت الجزيرة كثيرة الزرع والاثمار فبنى فيها مذبحاً وقدم ذبيحة شكراً للآلهة على نجاته . وفيما هو جالس سمع صوتاً كهزيم الرعد واذا بحية طولها ثلاثون ذراعاً ولها لحية

طولها ذراعان وجسمها يلمع كأنه مغطى بصفائح من الذهب فلما رآها ارتعدت فرائصه وجثا امامها يتوسل اليها لكي لاتضره فحملته بفمها واوصلته الى حجرها وامرته ان يقص عليها خبر مجيئه الى تلك الجزيرة فحدثها بما كان من امره وكان مع الحية اخوتها واولادها وهن خمس وستون فوعدته بقدوم سفينة تعود به الى اهله بعد اربعة اشهر وكان كما قالت فعاد الرجل الى بلاده بالهدايا الثمينة من العاج والاثمار والقرود والحيوانات . ثم اختفت الجزيرة في الماء

وقد ظن مسبرو ان هذه الحكاية خرافية محضة ولكن لو حذفنا منها الحية وابدلناها برئيس قوم لصارت جغرافية محضة . ولا ريب عندي ان لها اصلاً حقيقياً ثم زيد عليه اختفاء الجزيرة لاخفاء الحقيقة كما كان يفعل الفينيقيون في ما يقصونه عن البلدان التي يجلبون بضائعهم منها

وبديهي ان اول بلاد دخلها ملوك مصر الاقدمون كانت البلاد المجاورة لتخومهم الجنوبية او بلاد السودان وكانوا يرسلون اليها بضائعهم من الكتان والطيوب والزجاج ويجلبون منها التبر وجلود الاسود وريش النعام وخشب الابنوس

واول سائح مصري وصل خبره الينا نشأ في عهد الدولة الخامسة (منذ ٤٧٣٠ سنة) في ايام الملك اسا واسمه اردودو وهو من كبار رجال الدولة وغاية ما يعلم من امره انه سار جنوباً الى الارض المباركة واحضر منها قزماً اعجب الملك برقصه . ولقد كان لسياحة هذا الرجل شأن عظيم عند المصريين القدماء فنقشوا خبرها بين آثارهم . وقام بعد اردودو سائحان اسم احدهما اونة واسم الآخر خركوف وكانا متعاصرين . ويظهر من النقوش التي وجدت على قبر اونة (وقد كشفه مريت باشا في العرابة المدفونة ونقله الى دار التحف المصرية) انه كان يحمل التاج في عهد الملك تتا اول ملوك الدولة السادسة ثم ارتقى في عهد خلفه بيي الاول وتقلد مناصب سامية « اكتسب بها رضى الملك اكثر من كل رجال الدولة » وبعث به الملك الى ترويو (طره) لاحضار حجر ابيض يصنع منه ناووس للملك فأتم ما أمر به على ما يرام فجعله الملك صديقاً له وعهد اليه بقيادة حملة لمحاربة عربان جبل سينا واهالي جنوبي سورية فجمع جيشاً من اهالي الجنوب ومن اهالي مدجاو السود (وهم البرابرة وكانوا في تلك الايام شرطة البلاد وحفظة الامن فيها) ومن اهالي امام واواوت وكاو وتاماهو (وهؤلاء من صحراء ليبية) وغزا العرب خمس مرات « فقطع اشجارهم واحرق بيوتهم

وحصونهم وذبح الوفاً منهم » ثم سار بحراً الى العريش واخضع سكان تلك البلاد فعلت منزلته عند فرعون وسمح له ان يلبس نعليه في حضرته وهذا اعظم ما يكافأ به احد عند ملوكهم

وخدم اونة الملك مرنرا خليفة ببي فأمره اولاً بعمل ناووسه ثم ولاه على الوجه القبلي وفوض اليه انشاء السفن . ولما اعوزه الخشب في مصر كلف امراء بلاد النوبة و بلاد الجنوب باحضاره وبنى معامل كثيرة في بلادهم ولاسيما في بلاد امام

وزاره الملك في جزيرة الفنتين ورأى اعماله العظيمة ونقش اسمه وصورته على صخر الشلال . وتوفي اونة بعد ذلك بزمن قصير

وقد عثر العلماء في حكاية اونة على اسماء شعوب وبلدان كثيرة جنوبي مصر ولكنهم لم يتفقوا على تعيينها . وقد درست هذه الاسماء مع صديقي العلامة غروف وقابلناها على الاسماء الواردة في حكاية خركوف فاستنتجنا منها اموراً جديرة بالذكر وسيأتي الكلام عليها

واكتشفت قرينة ولي عهد اسوج ونروج مدفن خركوف وهو احد كبار الدولة في ايام الملك مرنرا وبي الثاني وذلك في شهر فبراير سنة ١٨٩٢ في التل الذي على الجانب الايسر من النيل في اصوان. واتفق اذ ذاك وجود العالم ارنست شيابرلي هناك فاعتنى بفتح المدفن وقراءة الكتابة التي فيه وهي تصف ثلاثة سياح وست رحلات وفيها امور تمكنا بواسطتها من تحقيق اسماء البلدان التي ذكرها اونة . وقد اعلن المسيو شيابرلي اكتشافه هذا للجمعية الجغرافية في جلسة ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٣

اما السياح والسياحات التي ذكرها خركوف فهي : —

(١) سياحة اردودو المار ذكرها

(٢) سياحة خركوف مع ابيه وكان الملك مرنرا قد ارسلهما مع آرا لاكتشاف طريق جديد الى بلاد « امام » وهي قرب بربر والاتبرة . واذا ثبت هذا كانت هذه الطريق طريق كروسكو الى ابي حمد وهي تخترق بلاد اوهات وهناك التقى خركوف في سفرته الثالثة بامير امام . ومن المحتمل ان آرا كان قد زار تلك البلاد مع اونة فان اونة قضى نحو سنة في ذهابه وايابه الى بلاد امام لانه سار في النيل وكان مضطراً ان ينتظر زمان الفيضان ليتمكن من عبور الشلالات. لكن خركوف وآرا قضيا سبعة اشهر فقط في سياحتهما هذه وعادا بالهدايا الثمينة « فاستحقا شكر الملك لهما »

(٣) والتي خركوف بسياحته هذه او بالتي تليها بامير امام في برية كروسكو وكان زاحفاً لقتال شعب تاماهو الذين كانوا ساكنين في بلاد الغرب ولعلها عند منحرف النيل وكان هذا الشعب ممتداً الى الواحات فسار خركوف اليهم مع جنود امير امام وصادقهم والزمهم بعبادة آلهة المصريين

(٤) ثم ارسله الملك وحده (وهي الرحلة الثالثة) لاستكشاف البلاد التي تلي بلاد امام فسار الى بلاد ارت ومسكر وترارس وأرتيت وستو « ولم يفعل ذلك قبله احد من مستشاري الملك او مندوبيه في بلاد امام »

(٥) ورحلته الرابعة كانت بتجريدة عسكرية على ما يستدل من قوله انها كانت « لتوطيد الامن » . ووصل فيها الى بلاد امام وارت وستو وبلاد المتلعثمين ورجع منها بثلاث مئة حمار تحمل الهدايا الثمينة كالابنوس والعاج وجلود الوحوش واحضر معه الرجال الذين اخذهم اونة الى معامل امام . « عند ما سار اليها بالقوارب الحاملة ثمراً واشربة وآنية النحاس »

وقد قابلنا اخبار هذه الرحلات باخبار رحلة اونة فتمكنا من تحقيق اسماء بعض البلدان . فقد تقدم القول ان اونة جلب الخشب من امراء امام وارت وبلاد المتلعثمين وانه انشأ معامل في النوبة وانه سار الى تلك البلدان صاعداً في النيل وقد شحن قواربه بالاشربة والمجوهرات والآنية النحاسية وبقي في سفرته هذه سنة من الزمان لانه اضطر ان ينتظر الفيضان لكي يتمكن من عبور الشلالات ولذلك فبلاد امام واقعة في ما يلي الشلالات او حوالي مدينة بربر

وجاء في رحلة آرا ان الملك ارسله ليكتشف طريقاً اقصر من التي سار فيها اونة ولا ريب انه سار براً مخترقاً صحراء كروسكو لانه لم يذكر السفن قط . ولما عاد خركوف من الحملة على اهل ارت وستو وبلاد المتلعثمين رجع الى مصر بطريق النيل ماراً ببلاد امام واحضر معه الرجال الذين كان اونة قد استخدمهم في المعامل التي انشأها هناك

فاذا تقرر ان بلاد المتلعثمين كانت جنوبي بلاد النوبة حيث الطول من ١٥° — ٢٠° وان بلاد اوهات كانت في صحراء كروسكو وبلاد امام وارت حوالي بربر وبلاد ارتيت على جانبي نهر الاتبرة جنوبي امام ويليها ستو امكننا ان نتتبع رحلات اولئك الرواد بالتدقيق وان نعرف مواقع البلدان التي زاروها

(٦) اما رحلة خركوف الخامسة والاخيرة فلا يزال تفسيرها مبهماً . فقد ذكر ان بي الثاني خلف مرزا ارسله الى بلاد الجنوب ليأتيه بطيوبها فعاد اليه بالهدايا الفاخرة من امير اماو . وهذه اول مرة ورد فيها هذا الاسم وقد اتفق العلماء ان هذه البلاد واقعة الى جنوبي بلاد امام وارتيت وستو . واحضر خركوف معه قزماً من البلاد المباركة كالذي احضره اردودو ولكنه لم يذكر هل سار بنفسه الى تلك البلاد او اخذ القزم من القوافل . وقد اثبت العالم شيابرلي ان البلاد المباركة كانت لاتزال بعيدة الى الجنوب الشرقي حيث موطن الاقزام الاصلي — ولما بلغ فرعون وعبيده خبر مجيء القزم قاموا وقعدوا ولم يطمئن بالهم حتى وصل اليهم سالماً فسلم فرعون الى خركوف رسالة « مملوءة من الفرح والمحبة » دبج سطورها « المنجمون الجالسون في حضرة الملك » ومنها « يعلم الناس مظاهر الشرف والافتخار التي اولاه اياها الملك »

وانتهت الرحلات ايام الدولة السادسة بخطب عظيم وذلك ان بينكت احد المقربين الى بي الثاني سار بامره لاخضاع اهالي جبل سينا وجنوبي سورية . وبعد ان تم مهمته اراد السفر بحراً الى البلاد المباركة ثم الرجوع منها بحراً سائراً بجانب الشاطىء الى رأس باناس ومن هناك براً الى انس الوجود . وبينما كان يبني سفينته هاجمه عربان جبل سينا وذبحوه مع اكثر رجاله فحمل الباقون جثته ودفنوها في الجبل مقابل اصوان . وقد اكتشف بوريان مدفنه سنة ١٨٩٢ . وحدثت كل هذه الامور منذ اكثر من خمسة آلاف سنة حينما كان اهالي اوربا يأوون الى الكهوف والبحيرات . وقد تمكن العلماء بعد الجهد من حل رموز الكتابات القديمة فصرنا نروي اليوم اخبار تلك الايام . ومن فضل العناية الموجهة للمكتشفات الاركيولوجية صرنا نقف امام الخزائن في المتحف المصري ونرى جثة الملك مرزا سلف محمد علي باشا الذي بعث باونة وآرا وخركوف لاكتشاف بلاد الجنوب

(مقتطف مايو سنة ١٨٩٧)

الرحلات الافريقية القديمة[1]

(١)

الرحلة القديمة

قال استرابون المؤرخ الجغرافي اليوناني ان ابعد ما عرف عن الرحلات القديمة رحلة ربان قرطجني ارتاد بسفنه سواحل ليبية وافريقية الشمالية الى ان بلغ خط الاستواء

وقال هيرودوتس الرحالة اليوناني الذي ساح في مصر وشمالي افريقية ان نخو أحد فراعنة مصر اوفد بعثة فينيقية لارتياد سواحل افريقية الجنوبية واكتشاف بلدانها فجازت تلك البعثة بسفنها الى البحر الاحمر بترعة حفرت في عهد هذا الملك وبعد ان قضت ثلاث سنين على سواحل افريقية وصلت الى اعمدة هرقل (اي بوغاز جبل طارق) وقد عجب هيرودوتس من امر حدث لرجال هذه البعثة وهو ان الشمس كانت تطلع اولاً عن يسارهم ثم صارت تطلع عن يمينهم

وذكر استرابون رحلة اخرى يونانية مصرية على عهد البطالسة قام بها يوناني اسمه ارطيميدورس اجتاز سواحل افريقية من البحر الاحمر الى رأس الرجاء الصالح

وذكر أيضاً رحلة اخرى اقدم من هذه قام بها يوناني اسمه اودكسوس لكي يأتي بالبخور والطيوب والبهارات فأتى اولاً الى مصر وذلك على عهد البطالسة واجتمع بملكها ووزرائه وطلب منهم ان يعينوه على رحلته هذه لاستجلاب الطيوب والتقادم للآلهة . وكان قد وجد قبل وصول اودكسوس الى مصر بمدة وجيزة رجل غريب على شاطىء البحر الاحمر ملقى على الرمل مشرفاً على الموت فعولج وبعد ان شفي اتي به الى الملك فسأله عن امره فلم يقدر ان يفهمه شيئاً لجهله اليونانية التي كانت لغة البطالسة في مصر وقتئذ فعلم هذه اللغة ولما صار يفهمها قال انه من بلاد الهند اتى مع جماعة في مركب للتجارة على شواطىء بلاد العرب فطلع عليهم نوء حمل مركبهم الى سواحل افريقية وحطمه فغرق اصحابه كلهم ولم ينج غيره . فامر بطليموس هذا الرجل

---

(١) للمرحوم ديمتري نقولا

ان يصحب اودكسوس كدليل يدله على البلاد التي مر بها وعلى طريق الهند . ثم زود اودكسوس بالمال والرجال واعطاه هدايا ليقدمها للملوك الذين يأتي بلادهم وجهز له مركباً كبيراً فسافر به واخذ معه الرجل الهندي وبعد بضع سنين رجع من سفرته ومثل بين يدي الملك واخبره بانه اجتاز مضيق باب المندب وتتبع سواحل افريقية الشرقية وذكر له عوائد أهلها ووصفهم بآكلي السمك والبشر وقال : ان عندهم كثيراً من الذهب والعاج والطيور الكبيرة الجثة كالجمل ووصف وجوههم وفطس انوفهم وتجعد شعورهم وصفاً ينطبق على اهالي سواحل افريقية وزنجبار . واحضر معه كثيراً من البهارات والطيوب والحجارة الكريمة والمرجان واللؤلؤ فاخذ الملك كل ما أتى به اودكسوس من تلك البلاد وحرمه منها وتركه وشأنه فاقام في الاسكندرية حزيناً ليس معه مال يرجع به الى بلاده

ثم توفي هذا الملك وملكت بعده زوجته الملكة كليوباطرة الشهيرة فرفع اليها امر هذا الرجل فامرته ان يسافر سفرة ثانية واعطته من السلع والتحف اكثر مما كان معه في السفرة الاولى وجهزته بمركب ومال ونوتية فسافر وغاب مدة طويلة وقذفت الريح مركبه الى اثيوبية (الحبشة) فجال فيها مدة ثم غادرها وسار الى ما وراءها من البلاد على سواحل البحر وخالط اهلها وتعلم لغاتهم واعطاهم القمح والنبيذ والتين اليابس والحبوب التي لا يعرفونها فسروا بها جداً واعطوه عوضاً عنها كثيراً من العاج والذهب وغيرهما . ووجد اودكسوس عند أحد ملوك البلاد التي مر بها مقدم مركب منقوش عليه رأس فرس وقيل له انه مقدم مركب لجماعة غرباء جاءوا من الجنوب فانكسر بهم وغرقوا . ولما رجع الى مصر كانت الملكة كليوباطرة قد ماتت فاستولى الحاكم الروماني على كل ما جاء به من التحف الثمينة والهدايا والحيوانات النادرة والطيور والطيوب والعنبر وحرمه منها ايضاً ولم يبق له سوى مقدم المركب فاخذه الى السوق في الاسكندرية ليبيعه ويسد رمقه بثمنه فعرفه الملاحون وقالوا له انه مقدم سفينة ايبيرية (ايبيريا هي بلاد اسبانيا والبرتغال اليوم) لان هذه السفن لا تصنع الا في تلك البلاد . فادرك اودكسوس بثاقب فكره انه يمكن السفر حول افريقية من مضيق جبل طارق اذ لا يمكن ان تكون هذه السفينة قد اجتازت الى البحر الاحمر من البحر المتوسط ولا بد انها اجتازت الى بحر الظلمات (المحيط الاتلنتيكي) ومرت

بسواحل افريقية الغربية الى رأس الرجاء الصالح ثم صعدت شمالاً على سواحل افريقية الشرقية .ولما خطر له ذلك رجع الى بلاد (اليونان) وباع بيته وكل ما يملكه وجهز سفينة وسافر بها الى صقلية ومنها الى موريتانيا (مراكش والجزائر) ثم الى مدينة قادس في اسبانيا فعرض على بعض اهلها مقدم السفينة الذي وجده في شرق افريقية فعرفه بعضهم بانه مقدم سفينة سافرت مع سفن كثيرة في بحر الظلمات جنوباً ثم انقطعت اخبارها ولم ترجع . فتأكد اودكسوس عند ذلك انه مصيب في ما ظنه من امر هذه السفينة وحكى لأهالي قادس حكاية رحلاته ورغبهم في تجهيز رحلة بحرية الى شرق افريقية وكان سكان سواحل ايبيريا وقتئذ حسب اتفاق المؤرخين من الفينيقيين الذين هجروا بلادهم بعد ان افتتحها الاسكندر . والفينيقيون اهل اسفار وتجارة جابوا الامصار واكتشفوا البلاد القاصية وامتلكوا ناصية التجارة في الدنيا بما لهم من الخبرة في سلك البحار ومعرفة تخطيط البلدان ومواقعها وعادات اهلها ومحصولاتها واتقان صنع السفن فلم يحجموا عن امداد اودكسوس بالمال والرجال فجهز سفناً عديدة وجعل نوتيها من اهل قادس الخبيرين في سلك البحار واخذ معه اطباء واناساً يعزفون على الآلات الموسيقية وملأ السفن بالتحف ودار حول افريقية واكتشف بعض جزائرها الى ان وصل الى شرقيها .وهبت عليه عاصفة فجنحت سفنه على ساحل جزيرة فنزل اليها وتعرف باهاليها ووصف معيشتهم ومحصولاتهم وحيواناتهم بما ينطبق على اوصاف اهالي زنجبار وشرقي افريقية والحبشة ثم تركهم وسار الى الهند ثم عاد الى قادس

وبعد ردح من الزمن جهّز سفناً اخرى وسافر حول افريقية وحدث له اثناء رحلته هذه حوادث شتى ذكرها ملطبرون في جغرافيته نقلاً عن استرابون المؤرخ . وقال : انه اكتشف جزيرة كبيرة عند سواحل افريقية الشرقية واقام فيها مع رفاقه طول الشتاء وزرع فيها وحصد ولاشك انها جزيرة مدغشقر لانها اكبر جزيرة هناك. فعلى حسب رواية استرابون هذه كان الايبيريون او الفينيقيون الذين استوطنوا اسبانيا والبرتوغال اول من اكتشف رأس الرجاء الصالح بقيادة هذا الرحالة اليوناني العظيم . وهم اول من طاف حول افريقية من قادس الى زنجبار والحبشة

واذا صدقت رواية هيرودوتس التي تقدم ذكرها عن رحلة فينيقية مصرية في

زمن الملك نخو فرعون مصر فيكون عهد اكتشاف تلك الاصقاع قبل المسيح بزمن طويل

وذكر بعض المؤرخين الاولين ان جميع سواحل افريقية الشرقية كانت معروفة عند المصريين القدماء وانهم جابوها وعمروها وتجروا مع اهلها ولكن الرواية ضعيفة لان المصريين القدماء قلما كانوا يتغربون عن بلادهم ولم يتجاوزوا في حروبهم الى ما وراء النوبة

وقال بلينيوس المؤرخ الطبيعي: ان سواحل افريقية والحبشة وغيرها كانت معروفة لدى التبابعة ملوك اليمن القدماء وكانوا يتجرون مع اهلها بالقرفة وانواع الطيب المختلفة وكانوا يحرمون على العامة التجارة بهذه الاصناف لئلاً يفشوا سرها او يبيعوها للرومان واليونان

ومحصل ما تقدم ان الفينيقيين واليونان والمصريين والايبيريين كانوا يعرفون معظم سواحل افريقية قبل الميلاد (مقتطف يوليو سنة ١٩١٥)

—0:0—

٢

تاريخها الاسلامي

ذكر بلينيوس المؤرخ الروماني سنة ٧٠ للمسيح ان التبابعة ملوك اليمن عرفوا جميع ممالك افريقية الشرقية وجزرها وكان لهم عليها شيء من السلطة وكانوا يتجرون مع اهلها بالافاوية والطيوب المختلفة وقد حرموا على السوقة من عامتهم الاتجار بهذه الاصناف مع اليونان والرومان لئلاً يفشوها على زعمهم

ولما ظهر الاسلام رحل كثيرون من العرب في القرنين الاولين للهجرة الى سواحل افريقية الشرقية والشمالية فملكوا تونس وطرابلس الغرب واجتاز كثيرون منهم صحارى القيروان وليبية وتوغلوا في داخلية البلاد وبعضهم ذهبوا الى السودان من طريق مصر وقنا وكانت القصير مرفأ لمراكبهم يجتازون منها مضيق باب المندب في البحر الاحمر ويرتادون السواحل الشرقية حتى وصل بعضهم في بدء تاريخ الهجرة الى سواحل جزيرة مدغشقر جنوباً وأسسوا في شمالها مملكة عربية لم تزل آثارها وقلاعها وبقايا شعوبها موجودة حتى الآن . ويعرفون هناك بالسقلابة ولغتهم عربية قديمة مشوبة بالحميرية والسواحلية وعندي صورة كتاب ارسلته سميكوه رسول سلطانة السقلابة في شمالي مدغشقر سنة ١٢٥٠ هـ . الى السيد سعيد بن سلطان امام مسقط وعمان تطلب منه ان يحمي بلادها من مراكب الفرنسيس فارسل هذا الامام وقتئذ اسطوله العماني بجيش كبير واحتل جزيرة موكين وعقد معاهدة مع السلطانة المذكورة ووزرائها على ان تكون بلادها تحت حمايته ويدفع اهلها اليه الخراج غرشاً عن كل شخص واحد واحصوا الذكور منهم فكانوا ثلاثين الفاً وهذا مآل تلك المعاهدة :

بسم الله الرحمن الرحيم : نقول نحن الفقراء الى الله تعالى سميكو بن بتيك الوزير وبوبه بن فهانك بان مولاتنا صاحبة الاجلال والاقبال السلطانة سميكوه بنت السلطان رسول فوضتنا ان نعطي سيدنا سعيد بن سلطان امام مسقط جزيرة بوكين وان كل الناس الخاضعين لسلطانها من الوزراء والامراء وكبار السقلابة يكونون تحت حماية مولانا المذكور . وقد رضينا ان نسلم له عن كل راس من السقلابة قرشاً واحداً وقدرناهم بثلاثين الف رجل ..... وتعهدنا باصلاح بنيان القلعة وتسليمها له .... الخ ..

وقال بعض مؤرخي العرب انه في القرن الرابع للهجرة كانت كل سواحل

افريقية الشرقية وبلاد الزنج التي تليها معروفة عند العرب فاستوطنوها واتجروا مع اهلها بالعاج والذهب والطيوب العطرية وجلبوا منها الرقيق وهم الذين سموا بلادها وانهرها وجبالها باسمائها المعروفة الآن . وكانت بلاد ماينده وممبسة ومغدوشو وبثة وسفالة وكلوا وبمبا وزنجبار ممالك مستقلة زاهية عامرة وسلاطينها ذوي جاه وسطوة وصولة

وقال حميد بن محمد بن زريق العماني في تاريخه « الصحيفة القحطانية » (وهو كتاب كبير خطي مفرد بمكتبة زنجبار السلطانية تكرم علي باعارته المرحوم السيد حمود ابن حمد السلطان الاسبق)

« لما تولى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان الاموي حارب اهل عمان وفيها يومئذ الاميران سعيد وسليمان الازديان الجلنديان وبعد حروب طويلة جمعا زراريهما وسوادهما وخرج معهما خلق كثير من بني الازد ولحقوا ببلاد الزنج واستوطنوا افريقية وجزيرة بثة »

ومن ذاك الوقت تأسست ممالك العرب الاسلامية في تلك البلاد . وقال المسعودي في جغرافيته « ان على مسيرة يومين بحراً من زنجبار جزيرة قمبلو التي اسلم اهلها على يد العرب »

وذكر بعضهم ان العرب كانوا يسافرون الى الهند وسواحل افريقية من الاسكندرية فكانوا يركبون في النيل الى الفسطاط ومنها على الماء نحو اثني عشر يوماً الى قفط ومنها يركبون الابل مدة خمسة عشر يوماً الى شط برنيقة (وهي القصير على البحر الاحمر) ثم يركبون البحر بالسفن في زمن الصيف قبل شروق الشعرى وبعد مسيرة ثلاثين يوماً يصلون الى قانة ببلاد اليمن بعد اجتيازهم باب المندب ومنها يذهبون اما الى بلاد الزنج وممبسة جنوباً او الى كلكوت الهند فيصلونها بعد اربعين يوماً »

ويظهر من قول ابن الاثير في تاريخه الكامل . ان الزنوج اسلموا في بدء ظهور الاسلام وذكر ان كثيراً من الزنوج اموا اليمن والبصرة في ولاية الحجاج الثقفي (سنة ٧٥ هـ) وولوا عليهم رجلاً منهم دعوه اسد الزنج فافسدوا ونهبوا الثمار فامر الحجاج زياداً رئيس شرطته ان يقاتلهم فسير عليهم جيشاً مع ابنه حفص فقاتلهم ولكنهم تغلبوا عليه وقتلوه وهزموا اصحابه فارسل عليهم جيشاً آخر فهزمهم

ثم امتدت شوكة العرب في كل داخلية افريقية شمالاً وغرباً وشرقاً حتى بلاد الكونغو والزولو وكفروريا (الكفرة) ولم تزل آثارهم هناك الى الآن . وقد عثر بعض الاثريين الانكليز سنة ١٩٠٣ في شمال رودسيا شمالي الترنسفال وبالقرب من بلاد الكفرة على قبر عربي قديم وعليه كتابة بالحرف الحميري تنبيء ان اسم الميت سلام وانه توفى سنة ٩٥ هجرية (٧١٤ م) وينتظر العلماء اكتشاف آثار أخرى عربية مهمة في تلك الاصقاع النائية . واكتشف الالمان منذ بضع سنوات بالقرب من دانغا تحت انقاض مدينة فوماكو القديمة داخل افريقية الشرقية كتابات عربية قديمة فنقلوها الى متحفهم في برلين . وفي خرائب وقلاع ممبسة وملينده وبثة آثار كثيرة وكتابات عربية لم تزل محفوظة الى الآن

واستدل العلماء من ذلك ان العرب من بدء الهجرة عرفوا اكثر بلاد افريقية ووصلوا الى منابع النيل وتوغلوا في بحيراتها وغاباتها ومجاهلها وكانت حتى اواسط القرن الماضي يجهلها الافرنج . ووطئت اقدام الفاتحين من العرب تلك البلاد السحيقة قبل ان تطأها اقدام السياح المتأخرين

وقرأت في كتاب منقول عن تاريخ فتوحات البرتوغال وهم اصدق شاهد لانهم اخذوا في القرون الوسطى اكثر بلاد افريقية من العرب انه « بينما كانت سفن البرتوغال سائرة عند شطوط افريقية الجنوبية والشرقية (بين رأس الرجاء ونتال) وجدوا العرب شاغلين المرافئ كلها بمراكبهم الكثيرة وقد جمعوا احمالاً وافرة من الذهب اخذوها من بلاد كفروريا ووضعوها في سفنهم يريدون نقلها الى بلادهم » وحقيقة الامر انه كان للعرب تجارة واسعة في العصور الخالية في افريقية كلها

وقد اثبت اصحاب الخطط وبينهم المقريزي ان كل سواحل افريقية الشمالية والشرقية والجنوبية اكتشفها العرب بعد الفتح الاسلامي بزمن وجيز على عهد الخلفاء الامويين والعباسيين اي في ابان مجد مملكة العرب وسعة سلطانها ثم توغلوا في مجاهل البلاد حوالي النيل والنيجر والكونغو وكان عرب عمان وحضرموت والشحر والبحرين اول من عرف طريق الهند من عهد سحيق. وفي بدء الفتوحات الاسلامية اجتازت مراكبهم سواحل افريقية كلها وملكوا الصومال وجوبع وممبسة وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومور ولم تزل بقايا العرب في جزائر مدغشقر وفيليبين واسسوا فيها الممالك

واقاموا فيها الحصون والقلاع ووسعوا تجارتهم في تلك الجهات فاتجروا بالذهب وريش النعام والعاج والبهارات والطيوب . واما النخاسة فكانت منتشرة عندهم انتشاراً عظيماً يأتون بالرقيق من داخلية البلاد وينقلونه بمراكبهم الى العراق والشام ومصر والاندلس وكان للنخاسة اسواق عظيمة في مصر ودمشق و بغداد والبصرة وقرطبة واشبيلية

وزار ابن بطوطة الرحالة الشهير كثيراً من هذه الممالك الاسلامية الافريقية وجال في ممبسة ولامو ومغدشو وكلوة وشفالة وغيرها ، ووصف اهلها وعاداتهم ولقي من سلاطينها الاكرام والحفاوة والهدايا الكثيرة ووصفهم بالتقوى والامانة وقرى الضيفان . وكان ذلك قبل ان يمتلكها اليعاربة ملوك آل بنهان بعد القرن الخامس عشر

ولما ضعفت شوكة العرب بفقدان العصبية وضعف شأن الخلافة العباسية ببغداد وبانتقالها الى الفاطميين بمصر والعلويين في مراكش وجزائر الغرب وتفرقت الممالك الاسلامية العربية بين الدول التركية والتترية والشركسية سقط مجد العرب وتفرقت كلمتهم ونبذوا العلوم والمعارف وتركوا اسباب التجارة واشتغلوا عنها بالمنازعات القومية والحروب الاهلية ورضخوا لنير الاستعباد فسادهم الجهل وضاعت البلاد من ايديهم

وقد اشتد ساعد الاسبان والبرتوغال والاندلس فطردوا العرب منها فرحلوا الى فاس ومكناسة وتفرقوا في الجزائر ومراكش وتونس ولما قويت شوكة الافرنج هناك قام البرتوغاليون وجهزوا السفن والرجال في اواخر القرن الرابع عشر وارسلوها الى سواحل افريقية الغربية والجنوبية والشرقية وطردوا العرب منها

مقتطف اغسطس سنة ١٩١٥

obeikandl.com

٣

الرحلات البرتوغالية

ذكرنا في المقالة السابقة ان العرب توسعوا في الفتوحات منذ القرن الثاني للهجرة وامتلكوا كل شواطئ افريقية الشمالية والشرقية والغربية وتوغلوا في داخلية البلاد الى ان ضعفت شوكتهم بفقدان العصبية وضعف شأن الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر والعلوية في بلاد المغرب وخضعوا للدول التركية والتترية حتى سقط مجدهم وتفرقت كلمتهم واشتغلوا بالمنازعات القومية والدينية الى ان اشتد ساعد الاسبان والبرتوغال في الاندلس فطردوا العرب منها. ولما قويت شوكة الافرنج قام البرتوغاليون سنة ١٤٠٠ فجهزوا السفن الكثيرة والمراكب الكبيرة وارسلوها الى سواحل افريقية فطردوا العرب من بلاد السنيغال وشط العاج وكل السواحل الغربية. وكانوا يتنافسون في تحصيل اسباب الفخار والتوسع في الاسفار ويردفون الغزوة بالاخرى حتى ان نساء لشبونة عاصمة ملكهم كن يحرضن رجالهن على السفر وجوب البحار وغزو العرب ويدفعن حلاهن عن طيبة خاطر الى امراء البحر لتجهيز السفن. وكن يأبين التزوج بمن لا يذهب لغزو العرب وطردهم من بلادهم. ومما ساعد البرتوغاليين على تلك الغزوات البحرية استعمالهم البوصلة (او الحك) لمعرفة الجهات فانها جرأتهم على التوغل في عرض المحيط فاكتشفوا اولاً الجزائر التي على السواحل الغربية حتى رأس الرجاء الصالح. ثم اتجهوا شمالاً فاكتشفوا السواحل الشرقية كلها حتى باب المندب وشواطئ حضرموت وخليج العجم ومن هناك توصلوا الى اكتشاف طريق الهند كما سيأتي بيانه

ففي سنة ١٤٣٣ اكتشفوا جزيرة مادیرا واسسوا فيها مستعمرات وغرسوا فيها قصب السكر والكرم ودخلوا بلاد غينيا وسنيغامبيا وشط العاج وعصاب وملكوها وزرعوا ارضها واخذوا منها الخشب الى بلادهم

وفي سنة ١٤٤٣ اكتشفوا بلاد السنيغال وسواحل الكونغو وانجولا وجلبوا منها الارقاء والعبيد السودانيين واخذوهم الى لشبونة وهي المرة الاولى التي رأى فيها اهلها الزنوج وذوي الشعر الجعد والاجسام المطيبة بالافاويه والزيوت. واكتشفوا جزائر سانتا ماريا وسانتا هيلانة وفرناندوبو وغيرها. وفي سنة ١٤٥٦ اخذ القبطان

بطرس القنطرة بلاد سيراليون من العرب وتألفت فيما بعد في لشبونة شركة برتوغالية لاكتشاف سواحل افريقية كلها وطريق الهند فجهزت السفن الكثيرة العدد والعدد وامدتها بالرجال والذخائر وكانت تنتقل من بلاد الى أخرى ومن فرضة الى غيرها في السواحل الغربية وتتجر مع اهلها بالعاج والذهب والطيور الغريبة والقرود والطيوب والافاويه واحتكر ملوك البرتوغال لانفسهم تجارة العاج فأرسل يوحنا الثاني جماعة من قومه على سفن له الى سواحل افريقية فاكتشفوا في طريقهم جزائر سان توماس والبرنسس وشواطىء العاج ونجريا وسواحل الكونغو وزرعوا فيها القطن واسسوا المستعمرات

وفي اواسط القرن الخامس عشر هاجر الى هذه البلاد اليهود المطرودون من اسبانيا والبرتوغال فاستعمروها واتخذوا العرب والزنوج عبيداً لهم ولم يزل الى الآن في تلك البلاد السحيقة بقية منهم وهم يهود الا انهم اقتبسوا عادات الزنوج الاصليين في معيشتهم

وفي سنة ١٤٧٢ اكتشف القبطان البرتوغالي يوحنا ستنارم بلاد ساحل الذهب فاخذها من سكانها العرب وهاجر اليها البرتوغاليون واستوطنوها وبنوا فيها المدن والقلاع ثم دخلوا بلاد البنيان والكونغو ومنها نقلوا الى بلادهم زراعة الفلفل وغيرها من البهارات والفاكهة . وفي سنة ١٤٨٦ اكتشفوا اقليم السنيغال وانتهى الامر ان برتلمي دياذ الرحالة البرتوغالي الشهير واصل اكتشافاته جنوباً حتى وصل الى رأس افريقية الجنوبي بعد ما عانى الاهوال من العواصف والانواء وسماه « رأس الاهوال » ولكن يوحنا الثاني ملك البرتوغال ابدله باسم « رأس الرجاء الصالح » . وحينئذ تيقن البرتوغاليون ان في وسعهم الطواف حول افريقية بحراً اذ عرفوا ان هذه القارة جزيرة او شبه جزيرة . وفي سنة ١٤٩٥ دعا ملك البرتوغال القبطان الشهير والرحالة العظيم فاسكودي غاما للسفر الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فجهز له اسطولاً من المراكب الكبيرة وأمده بالمال والرجال « فخرج فاسكو من مرفأ لشبونة باحتفال عظيم وشيعه الملك وعظماؤه ورجال بلاطه بين هتاف الرجال وزغردة النساء . فاجتاز السواحل الغربية واستولى على جميع السواحل والبلاد التي مر عليها في طريقه حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح . ثم تحول بسفنه شمالاً واستولى على السواحل الشرقية فرسا أولاً عند بلاد سماها نتال اي المولد باسم المدينة

التي كانت مسقط رأسه واخذ بلاد كفروريا واكتشف في طريقه مدغشقر وجزائر القمور والنجوان ولم يزل يسير شمالاً محاذياً السواحل حتى وصل الى بلاد سفالة (موزمبيق) فاحتلها ورفع عليها العلم البرتوغالي وهناك اكتشف مناجم الذهب القديمة التي كانت معروفة منذ القدم عند المصريين والرومان والعرب. ويقال انها بلاد ترشيش التي ورد ذكرها في سفر الملوك وقيل ان سليمان الملك كان يأتي منها بالذهب والفضة والقرود والعاج والطواويس (ملوك اول ص ١٠) وبنى فاسكو في اكثر البلاد التي احتلها القلاع والحصون ووضع فيها بعض الحامية من رجاله وجعلهم وكلاء له لشراء الذهب والعنبر والمعادن والعاج. وقد وجد الرحالون البرتوغاليون في اسفارهم هذه كثيرين من تجار العرب عند شواطىء التال والترنسفال وموزمبيق يحملون تراب الذهب في الاكياس وينقلونها الى سفنهم ويأخذونها الى زنجبار وعمان وشبه جزيرة العرب

ثم استولى هذا القبطان الشهير على كل الممالك العربية الافريقية الشرقية وهي قطوة وسعداني وشيكوه وبنة وكاوه وبنجاني وملندة وكلها كانت ممالك زاهرة عامرة تحت حكم سلاطينها المستقلين من العرب. وقد ذكر ابن بطوطة اكثر هذه البلاد وحكامها في رحلته المعروفة

ولما وصل القبطان ورجاله الى مصب نهر زمبيسي الكبير ركبوا فيه بسفنهم وبنوا على ضفتيه القلاع والفرض واقاموا فيها اناساً من قومهم للمحافظة عليها وفتحوا اسواقاً عظيمة للتجارة

ثم استولوا على بقية الشواطئ الشرقية فرسوا في ممبسة وكانت وقتئذ مدينة تجارية عامرة فسر البرتوغاليون بها لانهم لم يروا مدينة عظيمة مثلها وكان فيها بيوت فخمة وقصور ومبان فاخرة واسواق عظيمة. قال ملطبرون في جغرافيته القديمة «ان اهالي ممبسة كانوا قبل دخول البرتوغاليين من قبائل العرب العرباء وكلهم على حضارة يعيشون بالبذخ والترف وعندهم بعض العلوم والصنائع وملمون باحوال التجارة ولهم فيها طرق مفتوحة في داخلية البلاد، وسفنهم تمخر في انهارها وتتجر مع عمان وحضرموت والهند»

ثم استولى القبطان فاسكو على سلطنة ملندة شمالاً وكانت زاهية زاهرة كثيرة المباني واسعة التجارة ورأى فيها جماعة من البنيان وهم طائفة من التجار الهنود فاخذ بعضهم الى سفنه ليدلوه على طريق الهند. وبعد ان استولى على سلطنات لامو وملنده

وكلوة ومغدشو وجميع السواحل الشرقية وجزائرها وطد قومه اقدامهم فيها فبنوا فيها القلاع الحصينة ولم تزل آثارها باقية الى الآن ، وعليها كتابات بلغتهم وعلى بعضها كتابات برتوغالية ازاء الكتابة العربية القديمة ». ثم واصل دي غاما سفره الى الهند ورسا على سواحلها وجلب منها البضائع ورجع الى بلاده . وفي سنة ١٥٠٠ خرج القبطان الينوزا البرتوغالي بمراكب كثيرة من لشبونة واجتاز بها سواحل افريقية الغربية ثم دار حولها متعهداً اثار من سبقه من الرواد وموطداً دعائم المستعمرات البرتوغالية وظل يسير شمالاً حتى اجتاز بوغاز باب المندب الى البحر الاحمر ثم ارتاد سواحل شبه جزيرة العرب بين عدن والشحر وحضرموت ثم رجع الى بلاده

وفي سنة ١٥١٣ استولى البيوكرك الاكبر البرتوغالي الشهير على جزيرتي زنجبار وبمبا وكان ملوكها واهلها وقتئذ من اليعاربة اصحاب الشوكة والصولة وجرى بينه وبينهم حروب عديدة براً وبحراً مدة سنين كثيرة واخيراً تم النصر للبرتوغاليين ففرضوا على ملوك تلك البلاد الخراج والمغارم ودخلت جميع ممالك العرب في طاعتهم . وكان في السواحل الشرقية بلاد يحكمها مشايخ من العرب بالشورى ولذلك دعاها مؤرخو البرتوغال جمهورية بروا فالزموا اهلها ان يدفعوا لهم كل سنة خمسمائة مثقال ذهباً . وكان لملك البرتوغال ايراد سنوي من هذه الممالك العربية يؤخذ ويصرف ثمناً لجلب البضائع من الهند الى لشبونة . فانفتحت بذلك للبرتوغال اسباب الغنى والسيادة على سواحل افريقية كلها شرقاً وغرباً حتى خليج العجم وعمان والهند . واخذوا عن العرب كثيراً من العلوم والفنون والصنائع واصول التجارة وعلم اسفار البحر وعرفوا المواقع والمرافئ والخلجان . وقد وصفهم مؤرخو البرتوغال في كتبهم بانهم في سعة من العيش والحضارة ولسلاطينهم شوكة وصولة وانهم من ذوي الكرم والثروة . وكانت لهم تجارة واسعة مع سواحل العرب وحضرموت والبصرة وعمان والهند وكانت كل سلطنة مستقلة عن الاخرى في احكامها ومعاملاتها

وفي سنة ١٥٧٣ وصلت حملة بحرية برتوغالية واجتازت السواحل الشرقية وتوغلت في داخلية البلاد طلباً لاكتشاف مناجم الذهب وبعد مشقات كثيرة وحروب عديدة مع العرب والزنوج وصلوا الى ماتيكا في داخلية بلاد سفالة (موزمبيق) واكتشفوا معادن الذهب القديمة التي ذكرناها ولكنهم وجدوا الاراضي قاحلة جدباء وايقنوا

انهم لايقدرون ان ينتفعوا منها بشيء لانهم لم يكونوا يعلمون طرق الحفر والنقب الحديثة وليس عندهم آلات للنزول الى اعماق الارض وبلوغ عروق الذهب وكان العامل يشتغل اياماً ولا يستخرج من عمله اكثر من خمسة دراهم فتركوا البلاد ورجعوا الى بلادهم

ثم ارسل ملوكهم عمالاً لهم الى تلك الاصقاع بعد ان رسخت اقدامهم فيها وكان اولهم القبطان فرنسز الفارس وامتد حكمهم نحو اكثر من مائتين وخمسين سنة في مسقط وعمان وخليج العجم وممبسة ولامو وملندة وكاوة وزنجبار وسلطنة ويتو وكل ممالك افريقية الشرقية وجزائرها الى سنة ١٧١٥ حين قام الامام الاكبر سعيد بن سلطان ابن سعيد بن سلطان بن مالك بن ابي العرب بن سلطان بن مالك اليعربي القحطاني النبهاني امام مسقط وعمان الملقب بقيد الارض فاخرج البرتوغاليين من بلاده واجلاهم عن مسقط وخليج العجم ثم جهز السفن العديدة وارسلها مع جيش عظيم من العرب الى زنجبار وبمبا وسواحل افريقية الشرقية وطردهم من تلك الاصقاع وحاربهم في مواقع بحرية ومعارك برية يطول شرحها واخذ البلاد كلها منهم ودك حصونهم وقلاعهم واقام عمالاً له في لامو وممبسة وملندة وبستة من مشايخ آل المذروعي وفي زنجبار وبمبا اناب عنه امراء من آل نبهان ولبثت تلك البلاد تحت سلطة ائمة اليعاربة الى ان قام سنة ١٧٤١ الامام السيد احمد بن سعيد بن احمد بن محمد ابو سعيدي اليمني الازدي جد الاسرة البوسعيدية المالكة الآن في زنجبار وعمان وطرد اليعاربة من عمان وكل شواطىء افريقية ودانت له البلاد كلها وامتدت سلطته من عمان وخليج العجم وافريقية الشرقية حتى جزيرة القمور وشمالي جزيرة مدغشقر . وبعد ذلك انفصلت سلطنة زنجبار عن سلطنة عمان في اخبار طويلة لا سبيل لذكرها الآن

اما البرتغاليون فتقلص ظلهم من كل البلاد الافريقية الشرقية ولم يبق تحت حكمهم سوى اقليم موزمبيق .

مقتطف اكتوبر سنة ١٩١٥

٤

الرحلات الحديثة

قصد كثيرون من السياح الاوربيين اكتشاف مجاهل افريقية منذ القرن السابع عشر بعد أن عرفت واكتشفت شواطئها كلها . والمعروف منها رحلات كافانسي وبروا وكولنسي . وفي القرن الثامن عشر قام السياح كمبانيون وستيوارت وسكاو ولوكوك وبرون وبوريس وبورمان وباروى ومندوزا لاسرد برحلات عديدة ولكن تقاريرهم التي وضعوها في اسفارهم قلما يركن اليها واكثرهم لم يتجاوز الشواطئ الغربية والشرقية الا في بعض مئات من الاميال

وفي بدء القرن التاسع عشر قام ادمس الرحالة سنة ١٨١٠ عشر برحلة وصل بها الى تمبكتو وقام بعده الرحالة مونتوبرك فوصل بها الى نهر النيجر وهناك قتل بايدي المتوحشين

وكانت بعد ذلك رحلات السياح كلابرتون ولامي . ورتشرد لندر الانكليزي ورينيه كايه الفرنسوي وكلهم لم يتوغلوا كثيراً في المجاهل الافريقية فلم تأت رحلاتهم بفائدة تذكر . وقام بعدهم الرحالتان الشهيران برث وفوجل برحلات في الاقطار السودانية الغربية ومجاوزا نهر النيجر وكتبا عن اهالي تلك البلاد وعوائدهم . وفي سنة ١٨٠٦ رحل بعض السياح البرتوغاليين من موزمبيق الى داخل افريقية ووصلوا بعد مشقات ومصاعب عديدة الى مصب نهر زمبيسي العظيم ثم كانت بعد ذلك رحلة المرسل الانكليزي كريف ورفيقيه ارهرت وربمان فاكتشفوا بلاداً كثيرة في الداخلية كانت قبلاً مجهولة ووصلوا الى جبال كينيا وكلمنجارو المكللة رؤوسها بالثلوج صيفاً وشتاء واتجروا مع العرب وحصلوا على ثروة طائلة وهم اول من قالوا بوجود بحيرات كبيرة في اواسط افريقية وذكروا بعض معلومات عنها افادت السياح من بعدهم للوصول الى تلك البحيرات

وفي سنة ١٨٤٤ رحل شاب فرنسوي يدعى ميزان وكان من ضباط البحرية الفرنسوية فخطر له تبعاً لتقارير السائح كريف ان يتوغل في داخلية افريقية ويكتشف بنفسه بحيراتها الكبرى ويصف كل ما يتعلق بها فصوبت الحكومة الفرنسوية رأيه وامدته بالمال فذهب اولاً الى جزيرة بوربون ثم الى زنجبار وكان فيها وقتئذ المسيو

بروشان قنصلاً لهذه الدولة لدى الحكومة الزنجبارية فساعده في مهمته واراد ان يمده ببعض الحرس ، الا ان ميزان رفض ان يأخذ معه احداً ولم يستصحب معه سوى رجل واحد من السواحليين من التجار العارفين لطرق تلك البلاد السحيقة وتابع اسمه فريدريك . ولما وصل ميزان الى بغامويو لحقه اربعون رجلاً من الزنجباريين كان ارسلهم قنصل فرنسا وراءه ليقوموا بحراسته غير ان ميزان أمرهم ان يرجعوا من حيث اتوا ولبث في بغامويو مدة شهرين يتعلم فيها اللغة السواحلية حتى اذا اتقنها خرج في رحلته الى داخلية البلاد مع تابعه فريدريك

وفي شتاء سنة ١٨٥٤ وصل الى مقاطعة واكمبو وزار فازي مازنجري زعيم قبائل (المساي)ورحب به ، غير انه لما رأى ما عنده من الآلات الفلكية والادوات الهندسية والنظارات العلمية وقد بهرت انظاره بلمعانها غدر به طمعاً بالحصول عليها فقبض عليه واذاقه من العذاب الواناً وامر بتقطيع جسمه عضواً عضواً . واما تابعه فتمكن من الفرار بعد ان احتمى بزوجة هذا الزعيم الوحشي ورجع الى زنجبار واخبر قنصل فرنسا بما جرى لميزان فارسلت حكومة زنجبار قوة عظيمة للاقتصاص من تلك القبائل وزعيمها تبعاً للاوامر المشددة الصادرة من فرنسا

وجاء بعده برتون وسبيك الرحالتان الانكليزيان الشهيران فذهبا الى الهند سنة ١٨٥٦ وعزما على السياحة في داخلية افريقية لاكتشاف مجاهلها وبحيراتها فوصلا الى جزيرة بمبا ومنها الى زنجبار فاستقبلهما السر هاملتون قنصل انكلترا ورحب بهما ونشطهما على السياحة وكانت وطأة التعدي على الاجانب قد خفت في تلك الاصقاع بفضل سلاطين زنجبار ونفوذهم

وفي سنة ١٨٥٧ ركبا سفينة سواحلية ووصلا الى ممبسة وتجمع الاهالي على الشاطئ ليروا السائحين الغريبين وكان الاولاد يتزاكضون حولهما ويصيحون بلغتهم « مزنجو مزنجو» اي الافرنج البيض وزارا بالقرب من هذه المدينة المرسل الانكليزي ريمان وكان مقيماً هناك من مدة طويلة وقد تعلم لغة تلك البلاد . ثم ذهبا الى تنغا وركبا سفينة في نهر بنجاني الى الداخلية . ولا بأس بتلخيص هذه الرحلة لما فيها من الغرائب والفوائد الجغرافية

استصحب هذان السائحان معهما بعض الحرس والخامية من السواحليين والعرب وكان سيرهم في نهر بنجاني بطيئاً متعباً وقد التقوا بقطعان من عجول البحر وغيرها من

الحيتان ورأوا نوعاً من التماسيح هائل الجثة وهي كثيرة هناك تسرح على الشاطئ من الجانبين ومروا في طريقهم بغابات تكثر فيها القرود على اختلاف اجناسها ووجدوا انواعاً كثيرة من الاشجار الغريبة الضخمة ومن النباتات النادرة منها، نوع يشبه النخل له سعف ضخمة كفخذ الانسان وطول الورقة منها عشرون ذراعاً وهي محددة الرأس كالرمح

ووصلوا في الليلة الاولى الى قرية ذات ادغال كثيفة فاستقبلهم الاهالي بترحاب وامدوهم بالمؤونة والفاكهة وما زالوا يتوغلون في مجاهل تلك البلاد حتى وصلوا الى مدينة فوجه القريبة من جبال كينيا الشامخة التي تعلو تسعة آلاف قدم من سطح البحر

ثم رجع الرحالتان ومن معهما الى زنجبار واستعدا في تلك السنة لرحلة اخرى اعظم من الاولى واخذا معهما الرجال والدواب والاحمال والزاد ولكن قبل ان يصلا الى اوغندا اعترت سبيك الحمى الخبيثة الافريقية واصيب رفيقه برتون باعراضها . ولما شفيا واصلا السير الى الداخلية فوصلا في شهر يوليو الى مقاطعة وازرمي وزنجوميرو وهناك قبائل المساي الشهيرة بالغزو والسطو . وقد تجشمت هذه الحملة كثيراً من المشاق والمخاطر الى ان وصلت الى قازه وهي محط رحال القوافل من تجار العرب والنخاسة الى اواسط افريقيا وبحيراتها . وقد تحمل رجال هذه الحملة من لذع النمل الاحمر والاسود ما جعلهم يتوقفون عن المسير الى الامام، وهذا النمل يسير في تلك الفيافي كالجيش المرصوص وهو كبير الجثة طول النملة منه بوصتان او ثلاث ، ولها منسران صلبان حادان كنصل الرمح واحياناً يلتقي هذا الجيش بجيش آخر من النمل الابيض فيتقاتلان اشد القتال في معارك كبيرة الى ان يتغلب احدهما على الآخر ويفتك به، ولذع النمل الاحمر اشد ضرراً لانه سام

وقد التقت هذه الحملة في طريقها باسراب كثيرة من الفيلة والزرافي . والاهالي هناك يصطادونها ويجعلون من جلودها تروساً وهي متى جففت على طريقة يعرفونها تصبح صلبة متينة كالحديد لايخرقها الرمح الحاد

ثم وصلت الحملة الى بلاد اونياموزي وهي كثيرة الخصب جيدة المرعى ومنها واصلت سيرها الى بحيرة تنغنيكا فوصلت بعد سفر شاق اليها فطاف سبيك وبرتون حولها في قارب من جذع احدى الاشجار الضخمة ولاقت الحملة اهوالاً واخطاراً

عظيمة من الاهالي والوحوش يعسر وصفها ثم وصلا الى اوبواري واهلها يأكلون الجرذان والحشرات ولحوم البشر نيئة وهم في اسفل دركات الانحطاط والهمجية لافرق بينهم وبين الحيوانات في هيئاتهم وعوائدهم . ثم استأنفا المسير الى عوبرة على الشاطىء الغربي من هذه البحيرة ودخلا في بلاد اوجيجي . وبعد اربعة اشهر رجع برتون الى قازة مع بعض رجال الحملة قاصداً زنجبار لان الحمى انهكت قواه ولم يستطع مواصلة السير . واما رفيقه سبيك فاخذ باقي الحملة وواصل سفره وقد عزم ان لا يرجع بالخيبة والفشل الا بعد ان يكتشف بحيرة فيكتوريا نيانزا . وبعد شهر وصل اليها وهو اول من وصفها وصفاً جغرافياً علمياً . وبعد ان طاف حولها ذكر جزائرها ووصف اهلها وحيواناتها وزراعتها وحاصلاتها وقال ان اهلها على جانب من الحضارة وكلهم مسالمون وعندهم قطعان البقر والغنم والماعز ويزرعون الفول والارز وهو اول من قال بان منابع النيل من تلك البحيرة العظيمة

وفي اوائل سنة ١٨٥٩ رجع سبيك الى قازه فوجد رفيقه برتون قد تعافى من مرضه فاخبره انه اكتشف منابع النيل ثم طافا في تلك البلاد ووصلا الى اوغندا والتقيا بملكها ووصفا اهلها وحكومتها وكان للملك جيش لا يقل عدده عن مئة الف رجل . ومن هناك رجعا مع الحملة الى زنجبار ومنها الى اوروبا . وهذه هي الرحلة الاولى المهمة الى اعالى النيل . واقبل بعد سبيك وبرتون كثيرون من السياح لارتياد تلك البلاد السحيقة اشهرهم السائح العظيم لفنستون وستانلي الرحالة الشهير . ولا يسعنا المقام وصف رحلاتهما وما اكتشفا من البلاد والجبال والبحيرات والانهر . وانما نكتفي بالاشارة الى رحلة ستانلي وهو اول من اخترق قارة افريقية مرتين من الشرق والغرب اي من زنجبار الى الكونغو وبالعكس وعادت اكتشافات هذا الرحالة بفوائد جمة على علم الجغرافية وكشفت النقاب عن مجاهل افريقية الوسطى

رحل ستانلي من باريس ووصل في فبراير سنة ١٨٧١ الى زنجبار وامده المرحوم برغش سلطان زنجبار بحملة كبيرة من الرجال السواحليين وفي ٢١ مارس وصل الى بحيرة تنغنيكا وفي شهر نوفمبر وصل مع الحملة بعد ان لاقى المصاعب والاهوال الى بلاد اوجيجي حيث التقى بالرحالة لفنستون وكان التفتيش عنه هو المهمة التي انتدب لها كما هو معروف . واقام ستانلي عند لفنستون شهرين واتحدا معاً على اكتشاف حدود

البحيرة الشمالية . وفي شهر مارس سنة ١٨٧٢ فارق ستانلي لفنستون لانه لم يشأ ان يرجع معه الى اوروبا

وطاف ستانلي في اواسط افريقية وحده ورجع الى زنجبار ونقل خبر وجود لفنستون حياً بلسان البرق الى اوروبا . وقام بعد سنة برحلة اخرى لاكتشاف ما بقي من اواسط افريقية المجهولة واخترقها من الشرق الى الغرب واستصحب معه من زنجبار حملة كبيرة وقارباً صغيراً مفككاً ورافقه بضعة اشخاص من اوروبا فاجتاز في رحلته هذه كل مقاطعات افريقية الشرقية واوغاندا ووصل سنة ١٨٧٥ الى منابع النيل وبحيرة البرت ثم واصل سيره في اواسط افريقية حتى وصل الى الكونغو على المحيط الاتلنتيكي بعد ثلاث سنوات

ورحل ستانلي رحلة ثالثة سنة ١٨٨٤ اخترق فيها افريقية من الغرب الى الشرق اي من الكونغو الى زنجبار واكتشف في رحلته هذه بلاداً كثيرة وجبالاً وبحيرات وانهراً كانت مجهولة مما هو معلوم فلا نطيل فيه

وفي سنة ١٨٨٧ قام برحلة رابعة منتدباً من الجمعيات الجغرافية الاوربية ومن المرحوم توفيق باشا الخديوي الاسبق للتفتيش عن امين باشا حكمدار مديرية لادو ولبطون بك حكمدار بحر الغزال وكازاتي السائح الايطالي ويونكر السائح الروسي وقد انقطعت اخبارهم بعد ثورة الدراويش واستيلاء المهدي على السودان . فقام ستانلي بمهمته هذه المحفوفة بالمخاطر والمشقات واشتركت في نفقات هذه الحملة الحكومة المصرية والجمعية الجغرافية الانكليزية فاكتشف كثيراً من البلاد المجهولة وطاف في جهات السودان كلها . وفي ١٦ يناير سنة ١٨٨٩ التقى ستانلي بامين باشا ومن معه من الجنود المصريين ورجع بهم عن طريق زنجبار . وفي سنة ١٨٩٠ وصل الى مصر وكان له استقبال حافل وقدخدم هذا الرجل العظيم العالم اجمع وخلد له اسماً مجيداً باكتشافاته العلمية الثمينة

(مقتطف نوفمبر سنة ١٩١٥)

ابن بطوطه في السودان

(١)

لقينا بالامس رجلاً من ضباط الجيش البريطاني اخبرنا انه جال في السودان الغربي التابع لفرنسا ورأى فيه كثيراً من الآثار الدالة على عمران سابق يفوق عمرانه الحالي وقال ان أحد كتاب العرب وصفه منذ نحو ستماية سنة فقلنا لعله ابن بطوطه فقال هو هو فرجعنا الى ابن بطوطه فرأينا فيما كتبه عن السودان فوائد حرية بالنشر فاثبتنا منه ما يلي وابقينا الكلام بصورة المتكلم بعد ما حذفنا منه ما لا حاجة اليه . وزدنا فيه بعض الزيادات وضعناها بين قوسين

وابن بطوطه هو شرف الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الرحالة المشهور ولد بطنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) وخرج منها سائحاً سنة ٧٢٥ (١٣٢٥م) فجاء الاسكندرية والقاهرة وكانت اكبر المدن حينئذ على ما يرجح ما عدا بعض مدن الصين وحاول المسير الى مكة بطريق عيذاب فتعذر عليه ذلك فانقلب راجعاً الى مصر وسار الى فلسطين فحلب فدمشق ومنها الى المدينة ومكة حاجاً . ثم زار مشهد الامام علي في مشهد وسار منها الى واسط فالبصرة وقطع جبال خوزستان الى اصفهان وشيراز وعاد الى الكوفة فبغداد فالموصل فديار بكر . وحج ثانية وجاور ثلاث سنوات وجاء عدن وعبر الى افريقية وزار ممبسه وكلوى ثم عاد الى عمان وهرمز ومكة وحج ثالثة ثم جاء القاهرة بطريق اسوان وذهب الى بلاد الشام وبر الاناضول وعبر البحر الاسود واتصل بالسلطان محمد اوزبك صاحب تلك البلاد ووصل الى مدينة بلغار حيث العرض ٥٤ درجة و٥٤ دقيقة لكي يشهد قصر ليالي الصيف وحاول الوصول الى الارض المظلمة . وسار الى القسطنطينية في عهد الامبراطور اندرونيكس الثالث وعاد الى بلاد السلطان محمد اوزبك وقطع الى خوارزم وبخارى وسار الى كابول بطريق خرسان ودخل بلاد السند وانتقل الى ملتان ومنها الى دهلي عاصمة السلطان محمد تغلق واقام هناك ثماني سنوات ثم اوفد الى بلاد الصين فمر على جزائر ملديف فجزيرة سيلان وعبر الى بنجالة وعاد فزار جاوه وسومطره ووصل الى الصين ثم عاد الى سومطره وملبار وعمان وبلاد فارس وبغداد وتدمر ودمشق وحمص وحلب

والقدس والقاهرة وحج حجة رابعة وعاد الى فاس بطريق سردينية فوصلها بعد ما قضى في رحلاته هذه اربعاً وعشرين سنة وقطع الى الاندلس وعاد الى مراكش ومنها الى مكناسة ففاس ورحل من هناك الى بلاد السودان وهي الرحلة الاخيرة التي اردنا تفصيلها هنا قال : —

ودّعت مولانا ايده الله (الامام الخليفة أمير المؤمنين ابا عنان فارس المريني من آل عبد الحق) وتوجهت الى بلاد السودان فوصلت الى مدينة سجلماسة وهي من احسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة اطيب ونزلت عند الفقيه ابي محمد البشري وهو الذي لقيت اخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فيا شد ما تباعدا فاكرمني غاية الاكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها اربعة اشهر ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ٧٥٣ (١٨ فبراير ١٣٥٢م) في رفقة فيها جماعة من تجار سجلماسة فوصلنا بعد ٢٥ يوماً الى تغازى وهي قرية لا خير فيها من عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ولا شجر بها وانما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الارض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض يحمل الجمل منها لوحين . ولا يسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن الانلي (الذرة) المجلوب من بلاد السودان . ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بمدينة ايوالاتن بعشرة مثاقيل الى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً الى عشرين وربما انتهى الى اربعين مثقالاً (المثقال من الذهب يساوي نحو ٤٥ غرشاً) وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به . وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر . واقمنا بها عشرة ايام في جهد لان ماءها زعاق وهي اكثر المواضع ذباباً ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشر لا ماء فيها الا في النادر . ووجدنا نحن بها ماء كثيراً في غدران ابقاها المطر . والكمأة بتلك الصحراء كثيرة . ووصلنا الى تاسرهلا وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة ايام فيستريحون ويصلحون اسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ثم وصف مسيرهم في الصحراء الى ان دخلوا مدينة ايوالاتن فقال : —

ووصلنا الى مدينة ايوالاتن في غرة شهر ربيع الاول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي اول عمالة السودان ونائب السلطان فيها فربا حسين ومعنى فربا نائب ولما وصلناها ذهبنا الى الفربا وهو جالس على بساط في سقيف واعوانه بين يديه بايديهم الرماح والقيسي وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء ادبهم واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من اهل سلا كنت كتبت له ان يكتري لي داراً ففعل ذلك وكانت اقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوماً واكرمني اهلها واضافوني ، منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن نيومر واخوه الفقيه المدرس يحيى . وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ولحم الضأن كثير فيها وثياب اهلها حسان مصرية واكثر السكان بها من مسوفة ولنسائهم الجمال الفائق وهن أعظم شأناً من الرجال

والمسوفة عجيب أمرهم فاما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب احدهم الى ابيه بل ينتسب الى خاله . ولا يرث الرجل إلا ابناء اخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد والمليبار من الهنود . واما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن . واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات . ومن اراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو ارادت احداهن ذلك لمنعها أهلها . والنساء هنالك يكون لهن الاصدقاء والاصحاب من الرجال الاجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل احدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك

دخلت يوماً على القاضي بايوالاتن بعد اذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل وقال لي القاضي لم ترجع؟ انها صاحبتي فعجبت من شأنهما فانه من الفقهاء الحجاج

ودخلت يوماً على ابي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعداً على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له ما هذه المرأة فقال هي زوجتي فقلت وما الرجل الذي معها منها فقال هو صاحبها فقلت له اترضى بهذا وانت قد سكنت بلادنا وعرفت امور الشرع فقال لي ان مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها، ولسن كنساء

بلادكم. فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم اعد اليه بعدها . واستدعاني مرات فلم اجبه

نقول ولو دخل ابن بطوطه بيوت الاوربيين في هـذا العصر لرأى فيها ما رآه في بيت هذا الرجل ونساؤهم على تمـام العفة فهو مخطىء اذا بنى ارتيابه بعفة نساء ابوالآن على مجالستهن الرجال وسبب خطإه انه لم يعتد رؤية النساء مع الرجال على هذه الصورة كما ان هـذا الرجل محمد المسوفي مخطىء في حسبانه نساء المغرب اقل عفة من غيرهن فيحجبن . ثم قال ابن بطوطة

ولما عزمت على السفر الى مالي وبينها وبين ابوالآن مسيرة اربعة وعشرين يوماً للمجد اكتريت دليلاً من مسوفة اذ لا حاجة الى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق وخرجت في ثلاثة من اصحابي والطريق كثيرة الاشجار واشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا أغصان لها ولكن ظل جسدها يستظل به الانسان . وبعض تلك الاشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ويكون في بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس . ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً قد نصب فيها مرمّته وهو ينسج فعجبت منه . وفي اشجار هذه الغابة ما يشبه شجرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وفيها اشجار تثمر شبه القفوص فاذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالاسواق . ويستخرجون من هذه الارض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتي . والغرتي ثمر كالاجاص شديد الحلاوة يدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير . وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد الى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا . والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشاً حسناً . واذا سافر احدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه واوانيه التي يأكل ويشرب بها وهي من القرع. والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا اداماً ولا ديناراً ولا درهماً انما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية

واكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم فاذا وصل قرية جاء نساء السودان بالانلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والارز والفوني وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكس والعصيدة ودقيق اللوبياء فيشتري منهن ما أحب من ذلك

وبعد مسيرة عشرة ايام من ايوالاتن وصلنا الى قرية زاغري وهي كبيرة يسكنها تجار السودان ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية . ومن هذه القرية يجلب الانلي الى ايوالاتن . ثم سرنا من زاغري فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وينحدر النيل منها الى كابرة ثم الى زاغة . ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي واهل زاغة قدماء في الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم . ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو ثم الى بلدة مولي وهي آخر عمالة مالي ثم الى يوفي وهي اكبر بلاد السودان وسلطانها من اعظم سلاطينهم ولا يدخلها الابيض من الناس لانهم يقتلونه قبل الوصول اليها . ثم ينحدر منها الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم الى دنقلة وهي اكبر بلادهم وسلطانهم يدعى ابن كنز الدين اسلم في ايام الملك الناصر ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة اسوان

نقول والنهر الذي وصل اليه ابن بطوطة حينئذ هو نهر النيجر لا نهر النيل وهو يبتدأ في غرب افريقية فيجري أولاً الى الشمال الشرقي ثم ينحدر الى الجنوب يميل الى الشرق ويصب في خليج غينيا في الغرب الجنوبي من افريقية ولكن القدماء كانوا يظنون انه يسير شرقاً الى ان يلتقي بنيل مصر وانه هو اصل النيل وذلك خطأ كما لا يخفى

وعاد ابن بطوطه بعد ذلك الى وصف هذه المدن وما وجده فيها قال : —

مدينة مالي حضرة (عاصمة) ملك السودان وكان محمد بن الفقيه قد اكترى لي داراً فيها ازاء داره فتوجهت اليها وجاء صهره الفقيه المقرىء عبدالواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه اليّ في الغد وشمس الدين بن القويس وعلي الزودي المراكشي وهو من الطلبة ولقيت القاضي عبد الرحمن وهو من السودان حاج فاضل له مكارم اخلاق ولقيت الترجمان دوغا وهو من افاضل السودان وكبارهم وكان ابن الفقيه متزوجاً بنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام

وسلطان مالي هو منسى سليمان ومعنى منسى سلطان له قبة مرتفعة بابها بداخل

داره يقعد فيها اكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب او هي فضة مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم انه يجلس فاذا جلس اخرج من شباك احدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصري مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق . ثم يخرج من باب القصر نحو ثلثماية من العبيد في أيدي بعضهم القسي وفي ايدي بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف اصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون انهما ينفعان من العين وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى وتأتي الفرارية وهم الامراء ويأتي الخطيب والفقهاء فيقعدون امام السلحدارية يمنة ويسرة في المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها وعلى رأسه عمامة ذات حواشي لهم في تعميمها صنعة بديعة وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب وفي رجليه الخف والمهامين ولا يلبس احد ذلك اليوم خفاً غيره . ويكون في يده رمحان صغيران احدهما من ذهب والآخر من فضة واسنتهما من الحديد ويجلس الاجناد والولاة والفتيان والمسوفة وغيرهم خارج المشور في شارع متسع فيه اشجار وكل فراري بين يديه اصحابه بالرماح والقسي والاطبال والابواق وبوقاتهم من انياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب ولكل فراري كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده وهو راكب فرساً واصحابه بين مشاة وركبان. ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن اراد ان يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا ذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان

ويجلس السلطان ايضاً في بعض الايام بالمشور وهناك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبي تفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي . ويخرج السلطان من باب في ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها اطراف مثل السكاكين رقاق طولها ازيد من شبر واكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس ويخرج بين يديه المغنون بايديهم قنابر الذهب

والفضة وخلفه نحو ثلثمائة من العبيد اصحاب السلاح ويمشي مشياً رويداً ويكثر التأني وربما وقف فاذا وصل الى البني وقف ينظر في الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والابواق والانفار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ويقف دوغا على الباب وسائر الناس في الشارع تحت الاشجار

وحضرت بمالي عيدي الاضحى والفطر فخرج الناس الى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان . والسودان لا يلبسون الطيلسان الا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه في سائر الايام . وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليه واصلح من شأنه ثم خرج الى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة

ويجلس السلطان في ايام العيدين بعد العصر على البني وتأتي الساحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه اربعة من الامراء يشردون الذباب وفي ايديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الاربع وجواريه وهن نحو مئة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ويغني بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وافعاله ويغني النساء والجواري معه ويلعبن بالقسي. ويلعب دوغا بالسيف لعباً بديعاً وعند ذلك يأمر السلطان بالاحسان له فيؤتى بصرة فيها مئتا مثقال من التبر . وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه

مقتطف فبراير سنة ١٩١٦

٢

وحضرت مجلس السلطان في بعض الايام فاتى احد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاماً كثيراً فقام القاضي فصدقه ثم صدقها السلطان وكان الى جانبي رجل من البيضان فقال لي اتعرف ما قالوه فقلت لا فقال ان الفقيه اخبر ان الجراد وقع ببلادهم فخرج احد صلحائهم الى موضع الجراد فهاله امرها فقال هذا جراد كثير فاجابت جرادة منها وقالت ان البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها . فصدقه القاضي والسلطان وقال السلطان عند ذلك للامراء اني بريء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ومن علم بظلم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسائله. ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم على رؤوسهم وتبرأوا من الظلم

وحضرت الجمعة يوماً فقام احد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بابي حفص فقال يا اهل المسجد اشهدكم ان منسى سليمان في دعوتي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما قال ذلك خرج اليه رجال من مقصورة السلطان فقالوا له من ظلمك من اخذ لك شيئاً . فقال ما معناه ان مشرف ابوالاتن اخذ مني ما قيمته ستمائة مثقال واراد ان يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصة . فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد ايام وصرفهما الى القاضي فثبت للتاجر حقه فاخذه وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله

واتفق في ايام اقامتي بمالي ان السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة قاسا ومعنى قاسا عندهم الملكة وهي شريكته في الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجته الاخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك . فاكثر الناس الكلام في ذلك وانكروا فعله . ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالمملكة ولم يتربن [1] ثم ان السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح وتربن على العادة فشكت بنجو الى السلطان بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن . وعادتهن اذا دخلن على السلطان ان يتجردن من ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضي عنهن وصرن يأتين باب السلطان غدواً وعشياً مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان . وصارت قاسا تركب كل يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤوسهم

(١) التتريب رمي التراب على الرأس قال ابن بطوطه في مكان آخر ان اهالي السودان كانوا يفعلونه احتراماً للوكهم وعظمائهم

التراب وتقف عند المشور متنقبةً لا يرى وجهها . واكثر الامراء الكلام في شأنها فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه انكم قد اكثرتم الكلام في امر قاسا وانها اذنبت ذنباً كبيراً ثم أتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمي بما عندك فاخبرت ان قاسا بعثتها الى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه الى كنبرني واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له انا وجميع العساكر طوع امرك . فلما سمع الامراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه . فخافت قاسا من ذلك . واستجارت بدار الخطيب . وعادتهم ان يستجيروا بالمسجد وان لم يتمكنوا فبدار الخطيب

ولم يذكر ابن بطوطة ما جرى لهذه الملكة بعد ذلك لكنه قال ان السودان كانوا يكرهون منسى سليمان لبخله وذكر قصة عن كرم سلف سلفه ثم استطرد الى ذكر ما استحسنه من افعال السودان وما استقبحه منها فقال

من افعالهم الحسنة قلة الظلم فهم ابعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح احداً في شيء منه ومنها شمول الامن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة ، انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم اولادهم عليها واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد اين يصلي لكثرة الزحام . ومن عادتهم ان يبعث كل انسان غلامه بسجادة فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد . وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لاحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة . ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لاولادهم القيود اذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه

ومن مساوىء افعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات . ولقد كنت ارى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة فان عادة الفرارية ان يفطروا بدار السلطان ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا . ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وترى بناته ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر . ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدباً ومنها ان كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير

وكان دخولي الى مالي في الرابع عشر لجمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين (وسبعمائة) وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة اربع وخمسين (وسبعمائة) ورافقني تاجر يعرف بابي بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة وكان لي جمل اركبه لان الخيل غالية الاثمان يساوي احدها مائة مثقال فوصلنا الى خليج كبير يخرج من النيل (النيجر) لا يجاز الا في المراكب وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر احد به إلا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر . ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة لكثرتها هناك ثم اني رأيتها دخلت في النهر فقلت لابي بكر بن يعقوب ما هذه الدواب فقال هي خيل البحر خرجت ترعى في البر . وهي اغلظ من الخيل ولها اعراف واذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل وارجلها كارجل الفيلة . ورأيت هذه الخيل مرة اخرى لما ركبنا النيل (النيجر) من تنبكتو الى كوكو (غوى) وهي تعوم في الماء وترفع رؤوسها وتنفخ وخاف منها اهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم . ولهم حيلة في صيدها حسنة وذلك ان لهم رماحاً مثقوبة قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجله او عنقه نفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل الى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه ومن عظامها بالساحل كثير . وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربا مغا وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج

اخبرني فربا مغا ان منسى موسى لما وصل الى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكنى بابي العباس ويعرف بالدكالي فاحسن اليه باربعة آلاف مثقال لنفقته فلما وصلوا الى ميمة شكا الى السلطان بان الاربعة آلاف مثقال سرقت من داره فاستحضر السلطان امير ميمة وتوعده بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الامير السارق فلم يجد احداً ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضي واشتد على خدامه وهددهم فقالت له احدى جواريه ما ضاع له شيء وانما دفنها بيده في ذلك الموضع واشارت له الى الموضع فاخرجها الامير واتى بها السلطان وعرفه الخبر فغضب على القاضي ونفاه الى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم فاقام عندهم اربع سنين ثم رده الى بلده وانما لم يأكله الكفار لبياضه لانهم يقولون ان اكل الابيض مضر لانه لم ينضج والاسود هو النضج بزعمهم

حكاية — قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم معهم اميرهم وعادتهم ان يجعلوا في آذانهم اقراطاً كباراً وتكون فتحة

القرط منها نصف شبر ويلتحفون في ملاحف الحرير وفي بلادهم يكون معدن الذهب فاكرمهم السلطان واعطاهم في الضيافة خادماً فذبحوها واكلوها ولطخوا وجوههم وايديهم بدمها واتوا السلطان شاكرين . ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا الى بلدة قري منسا ومات لي بها الجمل الذي كنت اركبه فاخبرني راعيه بذلك فخرجت لانظر اليه فوجدت السودان قد اكلوه كعادتهم في اكل الجيف. فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتي ليشتريا لي جملاً بزاغري وهي على مسيرة يومين واقام معي بعض اصحاب ابي بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا بميمة فاقمت ستة أيام اضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل . ثم رحلت الى بلدة ميمة فنزلنا على آبار نخارجها ثم سفرنا منها الى مدينة تنبكتو وبين تنبكتو وبين النيل اربعة اميال واكثر سكانها مسوفة أهل اللثام وحاكمها يسمى فربا موسى حضرت عنده يوماً وقد قدم احد مسوفة اميراً على جماعة فجعل عليه ثوباً وعمامة وسروالاً كلها مصبوغة واجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم. وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق ابي اسحق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجي وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من اهل الاسكندرية

حكاية — كان السلطان منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل السلطان . واحتاج الى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه امراؤه ايضاً وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال فاقام بمالي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو اضافه ابو اسحق الساحلي فكان من القدر موته تلك الليلة . فتكلم الناس في ذلك واتهموا انه سم فقال لهم ولده اني اكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً لكنه انقضى اجله ووصل الولد الى مالي واقتضى ماله وانصرف الى ديار مصر

ومن تنبكتو ركبت النيل (النيجر) في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج اليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبحلي الزجاج . ثم وصلت الى بلد أنسيت اسمه له امير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة لا يتعاطى احد النزع في قوسه ولم ار في السودان اطول منه ولا اضخم جسماً . واحتجت بهذه البلدة الى شيء من الذرة فجئت اليه وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألني عن مقدمي وكان معه فقيه يكتب له فاخذت لوحاً كان بين يديه وكتبت فيه يا فقيه قل لهذا الامير انا نحتاج الى

شيء من الذرة للزاد والسلام . وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سراً ويكلم الامير في ذلك بلسانه فقرأه جهراً وفهمه الامير فاخذ بيدي وادخلني الى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي فجعلت اقرأ فيه ثم أتى بمشروب يسمى الدقنو وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل او لبن وهم يشربونه عوض الماء لانهم اذا شربوا الماء خالصاً اضر بهم وان لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل واللبن . ثم أتى ببطيخ اخضر فاكلنا منه ودخل غلام خماسي فدعاه وقال لي هذا ضيافتك فاحفظه لئلا يفر فاخذته واردت الانصراف فقال أقم حتى يأتي الطعام وجاءت الينا جارية له دمشقية عربية فكلمتني بالعربي فبينما نحن في ذلك سمعنا صراخاً بداره فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت اليه فاعلمته ان بنتاً له قد توفيت فقال اني لا احب البكاء فتعال نمشي الى البحر يعني النيل وله على ساحله ديار فأتى بالفرس فقال لي اركب فقلت لا اركبه وانت ماش فمشينا جميعاً ووصلنا الى داره على النيل واتي بالطعام فاكلنا وودعته وانصرفت ولم ار في السودان اكرم منه ولا افضل . والغلام الذي اعطانيه باق عندي الى الآن

ثم سرت الى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل (النيجر) من احسن مدن السودان واكبرها واخصبها فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوس الصناني الذي لا نظير له وتعامل اهلها في البيع والشراء بالودع وكذلك اهل مالي واقمت بها نحو شهر واضافني بها محمد بن عمر من اهل مكناسة وكان ظريفاً مزاحاً فاضلاً وتوفي بعد خروجي عنها . واضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الغيلاني امام مسجد البيضان . ثم سافرت منها برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وجين . ثم وصلنا الى بلاد برذامة وهي قبيلة من البربر ولا تسير القوافل الا في خفارتهم والمرأة عندهم في ذلك اعظم شأناً من الرجل وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون اعواداً من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك اعواد مشتبكة وفوقها الجلود او ثياب القطن ونساؤهم اتم النساء جمالاً وابدعهن صوراً مع البياض الناصع والسمن . ولم ار في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطاً بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح ومن اراد التزوج منهن سكن بهن في اقرب البلاد اليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا ايوالاتن.

٣

واصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا في السير الى ان دخلنا الى مدينة تكدّا ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجوزلي واضافني قاضيها ابو ابرهيم اسحق الجاناني وهو من الافاضل واضافني جعفر بن محمد المسوفي . وديار تكدّا مبنيّة بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونهُ وطعمهُ بذلك . ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مداً من امدادهم بمثقال ذهباً . ومدهم ثلث المد ببلادنا وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مداً بمثقال ذهباً . وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيًّا لم يبلغ واما الرجال فقلما تقتلهم . وقد لدغت بها يوماً وانا بها ولداً للشيخ سعيد ابن علي عند الصبح فمات لحينهِ وحضرت جنازتهُ . ولا شغل لاهل تكدّا غير التجارة يسافرون كل عام الى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها . ولاهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك اهل مالي وايوالاتن ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكثير

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليهِ في الارض ويأتون بهِ الى البلد فيسبكونهُ في دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم ، فاذا سبكوه نحاساً احمر صنعوا منهُ قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب اربع مائة قضيب بمثقال ذهباً وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبع مائة بمثقال وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحمل النحاس منها الى مدينة كوبر من بلاد الكفار والى زغاي والى بلاد برنو وهي على ميسرة اربعين يوماً من تكدّا واهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب . ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب المجسدة ويحمل النحاس ايضاً منها الى جوجوة وبلاد المورتبين وسواها

ذكر سلطان تكدا — وفي ايام اقامتي بها توجه القاضي ابو ابراهيم والخطيب محمد والمدرس ابو حفص والشيخ سعيد بن علي الى سلطان تكدّا وهو بربري يسمى

إزار وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركري وهو من سلاطين البربر ايضاً منازعة فذهبوا الى الاصلاح بينهما فاردت ان القاه فاكتريت دليلاً وتوجهت اليهِ واعلمهُ المذكورون بقدومي فجاء اليَّ راكباً فرساً دون سرج وتلك عادتهم وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليهِ ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعهُ اولاد اختهِ وهم الذين يرثون ملكه . فقمنا اليهِ وصافحناه وسأل عن حالي ومقدمي فأعلم بذلك وانزلني في بيت من بيوت الياطين وهم كالوصفان عندنا وبعث اليَّ برأس غنم مشوي في السفود وقعب من حليب البقر . وكان في جوارنا بيت امهِ واختهِ فجاءتا الينا وسلمتا علينا وكانت امهُ تبعث لنا الحليب بعد العتمة وهو وقت حلبهم ويشربونهُ ذلك الوقت وبالغدو . واما الطعام فلا يأكلونهُ ولا يعرفونه . واقمت عندهم ستة ايام وفي كل يوم يبعث الينا بكبشين مشويين عند الصباح والمساء واحسن اليَّ بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنهُ وعدت الى تكدّا

ذكر وصول الامر الكريم اليَّ — ولما عدت الى تكدّا وصل غلام الحاج محمد ابن سعيد السجلماسي بامر مولانا امير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول الى حضرتهِ العلية فقبلتهُ وامتثلتهُ على الفور واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث وقصدت السفر الى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدّا وتوات ،انما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالاثواب وخرجت من تكدّا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة اربع وخمسين (وسبعماية) في رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدّا وفي الرفقة نحو ستماية خادم فوصلنا الى كاهر من بلاد السلطان التكركري وهي ارض كثيرة الاعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحملهُ اهل توات الى بلادهم . ودخلنا منها الى برية لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة ايام ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة بها الا ان بها الماء ووصلنا الى الموضع الذي يفترق بهِ طريق غات الآخذ الى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجري على الحديد فاذا غسل بهِ الثوب الابيض اسودّ لونهُ وسرنا من هنالك عشرة ايام ووصلنا الى بلاد هكار وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم فلقينا احد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له اثواباً وسواها وكان وصولنا الى بلادهم

في شهر رمضان وهم لا يغيرون فيهِ ولا يعترضون القوافل واذا وجد سرّاقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا لهُ وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر. وسرنا في بلاد هكار شهراً وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر اهل لثام كهؤلاء فاخبرونا باخبار بلادنا واعلمونا ان اولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسايت من توات فخاف اهل القافلة من ذلك. ثم وصلنا الى بودا بضم الباء الموحدة وهي من اكبر قرى توات وارضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن اهلها يفضلونهُ على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب واكل اهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونهُ كما يختزن التمر ويقتاتون بهِ ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس فانهُ لا يطير اذ ذاك لاجل البرد. واقمنا ببودا اياماً ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في اواسط ذي القعدة الى مدينة سجلماسة وخرجت منها في ثاني ذي الحجة وذلك اوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الاتراك فلم ار أصعب من طريق أم جنيبة. ووصلنا ليلة عيد الاضحى الى دار الطمع فاقمت هنالك يوم الاضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فأس حضرة مولانا أمير المؤمنين ايده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك واقمت في كنف احسانهِ بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما اولانيهُ من جزيل احسانهِ وسابغ امتنانهِ ويديم أيامه ويمتع المسلمين بطول بقائهِ. وها هنا انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبع مائة والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »

انتهى ما نقلناه من رحلة ابن بطوطه الى بلاد السودان الغربي وهي آخر رحلاتهِ. ويرى الناظر فيها انها مفعمة بالفوائد عن حال سكان تلك البلاد في عصره. واول شيء ينتبه له ان سكان تلك البلاد كانوا في ذلك العصر ارقى مما صاروا اليهِ في اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر حينما دخلها الاوربيون. وانهم كانوا مسلمين في الغالب يكرمون رجال العلم ويأتيهم القضاة والمعلمون من المغرب الاقصى والقطر المصري والشامي فيحلون عندهم على الرحب والسعة. وان شأن المرأة كان رفيعاً عندهم مساوياً لشأن

الرجل . وقد قال ابن بطوطه ان البنات كنّ يخرجن عرايا ولعلّ الشبان كانوا كذلك وهذه هي الحال الآن في اواسط افريقية والعفة هناك ليست دون ما هي عليه في البلدان التي يلبس رجالها ونساؤها افخر الملابس واسترها للجسم . ويعجبنا ما قالهُ لهُ احد التجار في ايوالآن وهو ان مصاحبة النساء للرجال عندهم على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها . وقال هو قبيل ذلك ان السكان هناك مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهنّ على الصلوات

ومما يستحق الذكر ايضاً امتداد التجارة في ذلك العصر بين السودان الغربي وسائر الاقطار الافريقية والشرقية . وحبذا لو عني احد الباحثين بتفصيل هذه المواضيع .

(مقتطف ابريل سنة ١٩١٦)

الرحالة لفنستون

دافيد لفنستون مبشر ورائد ايقوسي ولد في بلانتير بمقاطعة لانارك بايقوسيا في ١٩ مارس سنة ١٨١٣ ، وتوفى في افريقية في اول مايو سنة ١٨٧٣ . وكان والداه مثالاً للجد والنشاط والاجتهاد فضلاً عما امتازا به من الاخلاق الفاضلة في الوسط الذي نبتا فيه بين الأسر الدنيا في ايقوسيا

لما بلغ من العمر عشر سنوات ترك مدرسة القرية التي كان يتلقى فيها مبادئ العلم الاولية وبدأ يعمل في معمل لغزل القطن ونسجه . ولكنه كان دئباً على تحصيل العلم بنفسه غير مستعين الا بارادته القوية . ولما بلغ الثالثة بعد العشرين من عمره استطاع بما له من المواهب والكفايات ان يتلقى العلم في احدى الجامعات . فحضر دورين دارسيين في الطب والآداب اليونانية واللاتينية في جامعة اندرسن بغلاسكو ، فضلاً عن اكبابه على اللاهوت وتاريخه . وبعد أن سمع كثيراً من المحاضرات التي كان يلقيها الدكتور « واردلو » اوقف كل قواه على خدمة جمعية التبشير في لندن وكان قد التحق بها عضواً في سنة ١٨٣٨ اثناء زيارة قصيرة لعاصمة الجزائر البريطانية ، ثم نال اجازته في علمي الطب الباطني والجراحة سنة ١٨٤٠ . وكانت كل آماله مقصورة على ان يذهب الى بلاد الصين لشغف كان له بتاريخها وتقاليدها ، وامتعض كل امتعاض عند ما علم ان الجمعية قد قررت ايفاده الى افريقية، فخرج من انجلترا مسلحاً بالعلم والاطلاع مزوداً بعدة من الصفات الخلقية التي ساعدته كثيراً على المصاعب التي عاناها والعقبات التي ذللها

وسافر لفنستون من انجلترا في ٨ دسمبر سنة ١٨٤٠ ويمم شطر « بتشوانالاند » حيث كان مركز جمعية التبشير في قرية « كورومان » على بعد ٧٠٠ ميل شمالاً ، فوصل اليها في ٣١ يوليو سنة ١٨٤١ . ولقد استطاع ان يعقد والرؤساء الوطنيين صداقة كانت من اهم العوامل التي أدت به الى اتمام اعماله ومشروعاته ، بان حصل على معاونتهم له ومساعدته على تنفيذ ما ربه ، حتى لقد استطاع ان يؤسس مراكز للاستكشاف تقع فيما يلي الاقطار التي انتشرت فيها المدنية الاوروبية ، وعلى الاخص في وادي « موباستا » الواقع على احد منابع نهر « اللومبوبو » وعلى بعد ٢٠٠ ميل

من قرية « كورومان ». وأكب خلال ذلك على درس اللغات والعادات الوطنية حتى يستطيع ان يرسم خطة تمكنه من ان يوجه قواهم ومجهوداتهم الضائعة من سبيل يؤدي الى تمدينهم ورفاهيتهم . فعرف بناقد بصيرته انه من الواجب ان لا يقصر جهوده على كتابة التقارير السنوية عن مدى بما بلغ اليه انتشار الفكرة التبشيرية ، بل ان يعمل من طريق ايجابي بان يدفع الوطنيين انفسهم الى ان يكونوا رسله ولسانه في الدعوة للمدنية الحديثة والعقائد . وبذلك يكون العمل ابقى اثراً واعظم انتاجاً . وفي سنة ١٨٤٦ انتقل الى قرية « شونوان » وفي سنة ١٨٤٧ الى قرية « كولوبنج » . ثم بدأ سنة ١٨٤٩ في التقدم الى الشمال حتى وصل الى ما بعد مدار الجدي ، وفي اول اغسطس استكشف لاول مرة في التاريخ بحيرة « نجامى » . وفي السنة التالية تابع اعماله الاستكشافية ، وكان معه زوجه واولاده ، وكان قد استقدمهم من انجلترا سنة ١٨٤٤ ، فوصل الى نهر الزامبيزي ، ومنه الى مدينة الكاب في ابريل سنة ١٨٥٢

وبعد ان وصل الى اعالي نهر الزامبيزي ضرب في رحلاته الاستكشافية الى الغرب ، فوصل سنة ١٨٥٤ الى بلاد «لواندا» الواقعة على المحيط الاتلنتيكي . ثم قفل راجعاً الى نهر الزامبيزي ، واتم جولته الافريقية من احد جانبيها الى الآخر ، متبعاً مجرى هذا النهر حتى وصل الى مصبه في المحيط الهندي سنة ١٨٥٦ . وفي اثناء رحلته هذه استكشف شلالات فكتوريا ، وهي اعظم ما يوجد من نوعها في الدنيا القديمة . وأبحر من « كليمين » من بداءة سنة ١٨٥٦ الى انجلترا حيث قوبل بكل ما يستحق من مظاهر التكريم والاجلال لمن كان سبباً في فتح ابواب جديدة للعلم والاستكشاف واسباباً تعود بالرفاهية والخير العميم على النوع الانساني

وفي سنة ١٨٥٧ طبع اول كتبه المسمى « رحلات تبشيرية وابحاث في افريقية الجنوبية » . وفي هذه السنة عينها قطع علاقته بجمعية التبشير في لندن . ثم عين في سنة ١٨٥٨ قنصلاً جنرالاً لانجلترا في شواطئ افريقية الشرقية ، على ان يكون مقره في « كليمين » ، وعهد اليه فوق ذلك بان يرأس بعثاً استكشافياً ليجوب شرق افريقية واواسطها . فرجع الى نهر الزامبيزي واستكشف بحيرة « شيروا » ثم بحيرة « نياسا » في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٥٩ . وطبع في اثناء زيارته الثانية لانجلترا (١٨٦٣ — ١٨٦٥) كتابه الذي وصف فيه هذه الرحلة واسماه « نهر الزامبيزي »

وفي اواخر سنة ١٨٦٥ عاد لفنستون لينظم بعثاً مهمته الاساسية استكشاف منابع النيل ، وليعمل في الوقت ذاته على محاربة تجارة الرقيق في افريقية . ففي اوائل سنة ١٨٦٦ بدأ يوغل في اواسط افريقية عن طريق « روفوما » ثم انقطعت اخباره عامين كاملين. وكانت المشكلة التي يحاول ان يحلها لفنستون هي البحث في نهر الزامبيزي وهل هو متصل بالنيل ، ام انه أحد نهيرات الكونغو ؟ . فوصل في حدود سنة ١٨٦٧ الى الشامبيزي ، وهو غدير يخترق الاقليم الواقع الى جنوبي بحيرة « تانجانيكا » في اتجاه جنوبي غربي ، وما زال يتابع مجرى هذا الغدير حتى وصل في ابريل سنة ١٨٦٧ الى مساحة كبيرة تغمرها المياه ، وعندها ينتهي مجرى الغدير . ولقد اعاقه عن التقدم عقبات كثيرة فالفياضانات المتوالية ، وما اظهر له المتجرون بالرقيق من خصومة وعداء اشترك فيه الوطنيون والاعراب على السواء ، والحاجة الى المؤونة التي كثيراً ما تأخر وصولها اليه ، وكثيراً ما نهبت خلال الطريق ، كل هذه الاشياء كانت من اكبر الحوائل التي اعاقت تقدمه زماناً ما

ولكن هذه الحوائل كلها لم تكن كافية لان تتغلب على ارادة لفنستون او ان تثني عزمه عن التقدم . فعلى الرغم منها تقدم (١٨٦٧) محوطاً بالصعاب والعقبات حتى استكشف « لوايولا » وبحيرتي « موبرو » « وبانجويلو » . ووصل الى اوجيمي على شاطىء بحيرة تانجانيكا سنة ١٨٦٩ ، وهنا امضى ردهاً من الزمان قبل ان يبدأ برحلة طويلة اراد ان يستكشف بها الاقاليم الواقعة في شمالي هذه البحيرة وغربيها

ولم تأت سنة ١٨٧١ حتى وقف لفنستون لاول مرة على شواطىء نهر الكونغو في « يناجوس » ولكن استكشافاته الاولى كلها لم تكن كافية حتى الآن ليكون بها رأياً صحيحاً في أنّ الغدير الذي ينساب تحت قدميه هو جزء من نهر الكونغو ! فعاد ادراجه الى اوجيمي مجتازاً كثيراً من الصعاب والآلام التي تقصر دون تحملها هم الجبابرة . وفيما هو في طريقه صادف في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧١ حملة ارسلت لتجده تحت رياسة الكابتن ستانلي قام بنفقاتها مستر جيمس جوردون بينت من مال جريدة النيويورك هرالد الامريكية، وقد زودت هذه الحملة الرائد الكبير بكثير مما كان في حاجة اليه كالعقاقير الطبية والميرة ، وبعد ان راد شمال بحيرة تانجانيكا بصحبة ستانلي ، افترقا في مارس سنة ١٨٧٢ وتابع لفنستون رحلته في حوض « اللوايولا لوالابا » وهو على امل ان يكشف القناع عن مشكلة نهر النيل والكونغو

وما وصل لفنستون الى هذا الحد حتى كانت المتاعب والمشاق قد انهكت قواه فادركته الوفاة في اول مايو سنة ١٨٧٣ في قرية الرئيس « تسيتامبو » احد اصدقائه على شاطىء بحيرة « بانجويلو » ففصل الوطنيون قلبه عن جسمه ودفنوه عند اصل الشجرة التي توفى الرائد الكبير تحت اغصانها وحفروا في جذع الشجرة كلمات تذكارية تشير الى المكان الذي توفي فيه لفنستون . وفي سنة ١٨٩٨ زار مستر « شاوب » حاكم المقاطعة الانجليزي ذلك المكان فوجد ان الشجرة آخذة في الانحلال بسرعة ، فجمع بطريق الاكتتاب في انجلترا مبلغاً من المال صنع به اثراً تذكارياً من الغرانيت وضع في نفس المكان الذي كانت فيه تلك الشجرة . اما الشجرة نفسها فقطعت واحتفظ بالقسم الذي كتب عليه ما يشير الى موت لفنستون ، وارسل الى الجمعية الجغرافية الملكية بلندن وحفظ بها . اما جثته فارسلت الى انجلترا في ١٨ ابريل سنة ١٨٧٤ حيث دفنت في كنيسة وستمنستر مقر الملوك والعظماء

اما استكشافات هذا الرائد الكبير فانها تنم عن صبر وقوة ارادة قلما توجدان من رجل غيره ، فضلاً عما تدل عليه ابحاثه من سعة العلم وبالغ الحجة والحب العظيم لخير الانسانية . فان اعماله وابحاثه تستغرق مجهود الجغرافي في الاستكشاف ، والمؤرخ الطبيعي في بعد النظر ودقة الملاحظة، والرجل المحب العامل على خير السلالات البشرية في جهاده المستمر ضد الاتجار بالرقيق . ولا مرية في ان ابحاثه وجهوده كانت اول ما بذل من جهد الرواد في سبيل الكشف عما انطوى عليه قلب القارة السوداء منذ أقدم العصور

—o:o—

السر هنري ستانلي

اذا ذكر العصاميون الذين ارتقوا بجدهم من ادنى المراتب الى اعلاها واستحقوا ان تنشر اسماؤهم في كتاب سر النجاح ليكونوا مثالاً لطلاب المعالي فالسر هنري ستانلي الرحالة الشهير في مقدمتهم . واذا ذكر رواد افريقية الذين اغروا ممالك اوربا بتدويخها واقتسامها وامتلاكها فله الشأن الاكبر بينهم . غير ان فعله هذا تختلف قيمته من حيث سكان افريقية ، لانه ان آل امتلاك الاوربيين لها الى نفع سكانها الاصليين كما نرجو ، فيكون له اكبر فضل عليهم . وان آل الى ضرهم كما نخاف فيكون من اكبر المسهلين لانقراضهم

ولد ببلاد الانكليز نحو سنة ١٨٤٠ من اصل وضيع جداً فلا يعرف شيء بالتحقيق عن سنة ميلاده ولا عن والديهِ وكان اسمهُ جون رولندس . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره هاجر الى اميركا ويقال انهُ ذهب اليها خادماً في احدى السفن وخدم هناك تاجراً اسمهُ ستنلي واجتهد في خدمتهِ فأحبهُ ووعد ان يتبناه فغير اسمهُ وتسمى هنري ستانلي لكن التاجر مات قبل ان يكتب وصيتهُ وتركهُ صفر اليدين لا يملك شيئاً فاقام سنتين او ثلاثاً الى ان نشبت الحرب الاهلية فانتظم في سلك الجنود واخذ اسيراً ولما انتهت الحرب جاء الى تركيا مكاتباً لاحدى الجرائد ثم لما ارسل الانكليز حملتهم على بلاد الحبشة سنة ١٨٦٧ بعثتهُ جريدة النيويورك هرلد مكاتباً لها فبعث اليها بخبر فتح مجدلة قبلما وصل الخبر الى الحكومة الانكليزية . وابدى في كل ما كتبهُ حينئذ وما كتبهُ قبل ذلك الحين وبعده من المهارة في الوصف والمقدرة على تمثيل ما يريد ذكره ما احله محلاً رفيعاً بين كتاب العصر كما ترى في الخطبة التالية

ولما عاد من بلاد الحبشة ارسلته جريدة الهرلد الى اسبانيا ليرقب الحوادث فيها وبعث اليه المسترغوردن بنت صاحبها وهو هناك يستدعيه الى باريس فلما حضر طلب منه ان يعود الى افريقية ليفتش عن لفنستون المرسل الانكليزي الذي مهد السبيل لرواد افريقية وللشركات التجارية وكانت اخباره قد انقطعت من زمن طويل وظن اصدقاؤه انه قضى نحبه . فقام ستانلي للحال واتى القطر المصري حينما فتحت ترعة السويس ثم سار الى زنجبار وضرب في افريقية فوجد لفنستون في اواخر سنة ١٨٧١ وبقي معه

اربعة اشهر يجوبان البلاد معاً وكان المرض قد انهك لفنستون فانتعشت قواه برؤية ستانلي وبما جلبهُ له من الزاد

وعاد ستانلي الى اوربا فوصل انكلترا في اواسط سنة ١٨٨٢ فقوبل بالترحاب ونشر فيها كتابهُ المشهور وجعل موضوعهُ « كيف وجدت لفنستون » فراج رواجاً عظيماً جداً ولا يزال الناس يتفكهون بقراءته حتى الآن . وقابلتهُ ملكة الانكليز واهدت اليهِ علبة سعوط مرصعة بالماس واهدت اليهِ الجمعية الجغرافية نيشانها الذهبي

وعادت جريدة الهرلد فارسلتهُ الى افريقية مع حملة الاشنتي ونشر بعد ذلك كتاباً جمع فيه رسائلهُ من مجدلة عاصمة الحبشة ومن كوماسي عاصمة الاشنتي . وسمع بموت لفنستون وهو راجع مع حملة الاشنتي فود ان يتمم ما لم يتممهُ لفنستون من اكتشاف مجاهل افريقية فتمت بغيتهُ . وارسلتهُ جريدة الدايلي تلغراف الانكليزية وجريدة الهرلد الاميركية على نفقتهما لكشف تلك المجاهل ففعل ما لم يفعلهُ رائد آخر من الرواد اذ دار حول بحيرة فكتوريا نيانزا وحول بحيرة تانجانيكا واصلح خريطتيهما وكشف اكثر ما يعرف الآن مما كان مجهولاً حينئذ من قلب افريقية . والمرجح انهُ لم يكتشف احد اكتشافات جغرافية تماثل ما اكتشف ستانلي في تلك السفرة . وعاد الى اوربا سنة ١٨٧٨ لكنهُ ذهب الى افريقية اسود الشعر فرجع منها شائبهُ لكثرة ما عاناه من المشاق وما اقتحمهُ من المخاطر

وذكر في احدى رسائلهِ وهو في هذه السفرة ان نهر الكونغو يصلح لسفر السفن وان هناك باباً واسعاً للتجارة فلم يكد يصل الى اوربا حتى استدعاه ملك بلجيكا اليهِ واستعان بهِ على تعمير تلك البلاد وفتحها للتجارة ورده الى افريقية لهذه الغاية، ومن ثم انشىء ما يسمى بولاية الكونغو الحرة وافلحت تلك الولاية مدة اقامة ستانلي فيها الى اواسط سنة ١٨٨٤ ثم حلت بها العبر بعد تركه اياها

وذهب الى اميركا يخطب فيها عما لقيهُ في رحلاته فاستدعتهُ الحكومة الانكليزية وطلبت منهُ ان يذهب الى اعالي السودان لانقاذ امين باشا وكان امين باشا مديراً على مديرية خط الاستواء من قبل الحكومة المصرية وقد قاوم الدراويش جهده وكادوا يتغلبون عليهِ فوعدت الحكومة المصرية بعشرة آلاف جنيه لهذه الغاية واكتتب الانكليز بعشرة آلاف جنيه اخرى . ولما اتم ستانلي عمله وانقذ امين باشا وعاد الى القطر المصري رحبت بهِ الحكومة المصرية واولمت له وليمة فاخرة في ٢٠ يناير سنة ١٨٩٠

رأسها دولتلو رياض باشا الذي كان رئيساً للنظار حينئذ . وبعد الطعام خطب ستانلي خطبة مسهبة وصف فيها رحلتهُ لانقاذ امين باشا قال فيها ما ترجمتهُ

الخطبة

قد حق عليَّ وعلى رفاقي مزيد الشكر لما لقينا في هذه الديار من مظاهر الاجلال والاكرام منذ دخلنا هذا القطر الى الآن فاليكم نسدي الثناء ومنكم نبغي التكرم بالقبول

ان الحملة التي اسعدنا الحظ باتمامها على ما يرام كان السبب فيها اعتقاد الانكليز بانهم مسئولون عما باتت فيهِ حامية مديرية خط الاستواء من الضنك والمركز الحرج وكذلك مديرها وكيل غوردون الذي امسى وحيداً فريداً في ديار مهجورة . فان المسيو ينكر لما عاد من افريقية افرغ وطاب الاخبار والانباء على اهالي الديار المتمدينة فقال ان في قلب افريقية رجلاً لم ينفرد هناك بارادتهِ بل طوعاً لاوامر غوردون رئيسهِ وانهُ محفوف بالاعداء من كل جانب وان الدراويش السائرين في جهات السودان عازمون على ان يمحو آثار سطوة مصر عن تلك الديار وهم يتأهبون لغزو المديرية واعمال السيف في حاميتها واهلها وان الرجل الذي بات وحيداً في تلك الاقطار عدم وسائط الدفاع وقاربت ذخائرهُ النفاد . وكنت حينئذ عازماً على السفر الى اميركا فقابلني صديق قديم وجعل يكلمني عن احوال المديرية الاستوائية وما الم بها وبمديرها من النوازل ثم قال لي أتقدم على انقاذها اذا مددناك بالمال فقلت له انكم انتم الانكليز بارعون في الاقوال بطيئون في الافعال . دبروا الاموال ثم اسألوني وعلى الله الاتكال . وسافرت بعد ذلك الى اميركا حيث كنت اخطب على اهلها وما اتممت الخطبة الرابعة عشرة حتى اتتني رسالة برقية ان ارجع حالاً الى انكلترا في اول باخرة فسافرت على الفور واتيت انكلترا وقلت اني مستعد للمسير فقالوا سر بعون الله وأعن امين باشا

وكان لنا اربع طرق للمسير الى المديرية الاستوائية وسأبوح لكم الآن بامر اظنهُ لا يزال مستوراً وهو اني كنت من بادئ الامر مستخيراً في نفسي طريق نهر الكونغو عالماً انهُ افضل الطرق ولو كان اطولها اذ احسن الطرق لا يلزم ان يكون اقصرها فلما كاشفت اعضاء اللجنة بهِ اعترض بعضهم عليهِ فقلت لا بأس فاني وعدتكم ببذل الجهد ولا فرق عندي سرت في هذه الطريق او في غيرها وعليهِ جزمت على المسير في طريق شرقية لا غربية

وارسلت رسالة برقية الى زنجبار بان يحملوا ٢٠٠ رجل مئتي حمل ارز ويرسلوهم الى امبوبوي في اطراف اراضي الالمان . وبعد مضي بضعة ايام اوعزت اليّ نظارة الخارجية الانكليزية بان المسير في تلك الطريق الشرقية يوجب الارتباك والقلاقل السياسية فالعدول عنها اسلم عاقبة من المسير فيها فاضطررت حينئذ ان اعدل عنها وعن سواها من الطرق الشرقية لان طريق كرغوي كانت مسدودة باعتراض قوم اوغندا فيها وطريق روندا الواقعة الى الغرب من طريق كرغوي لم تكن طريقاً تسلك لمن كان مثلنا حاملاً الذخائر والمؤن الكثيرة لاغاثة امين باشا وطريق نيسّا وبحيرة تانجانيكا وهي الرابعة لم تكن موافقة لنا لان احوال الشركة الانكليزية هناك لم تكن يومئذ على ما هي اليوم او على ما آمل ان تكون بعد بضع سنين بل لم يكن عندها الا سفينة واحدة وهي لاتستطيع نقل ٨٠٠ او الف انسان فلم يبق لنا الا طريق الكونغو ولما اخبرت اللجنة بذلك قالت افعل ما بدا لك فارسلت تلغرافاً ثانياً الى زنجبار ان استرجعوا مئتي حمل الارز التي ارسلتموها . فكلفنا ارسالها وارجاعها خمسة آلاف روبية ثم الحقت التلغراف بالتلغراف حتى دبروا لنا ٦٠٠ حمال لحمل المهمات والذخائر وسائر ما يلزم لاغاثة امين باشا

ورب قائل يقول وما هذه الاغاثة وكيف تكون . اقول ان اصدقائي الانكليز اخبروني صريحاً بانهم يودون بقاء امين باشا في افريقية ومحافظته على مديريته وهذا ما كان يقوله لي كل انكليزي ولكني اوجه انظاركم ايها السادة الكرام الى ما يلزم لامين باشا لو شاء البقاء فاولاً يلزم ان ترسل اليه ذخائر ومهمات كل سنة والا فلا يستطيع المحافظة على مركزه ثم ان عدد البنادق التي عند جنوده ١٧٥٠ او نحوها واذا اردنا ان نرسل لكل بندقية ٢٠٠ طلق فقط بلغ ما نرسلهُ ٨٠٠ حمل يلزم لها ٨٠٠ حمال عدا ٤٠٠ حمل من البارود للجنود الخطرية وعدا الخرز والقماش وغيرهما مما يباع به الطعام للحمالين . وعليه يلزم الفا رجل كل سنة لنقل ٢٠٠ طلق لكل بندقية وهؤلاء الالفان يقضون سنة في الذهاب والاياب . ناهيك عن نفقاتهم ونفقات الهدايا والزاد والادوية والوف الاشياء التي تلزم لذلك بحيث تبلغ نفقات القافلة كل سنة لاأقل من ٢٠ الف جنيه . ومعلوم ان الحكومة المصرية وهبت ١٠ آلاف جنيه لانقاذ امين باشا وقالت انها لاتعطي مالاً بعد ذلك لانها بعد ما تخلت عن شمالي السودان واواسطها لم تعد تعبأ بالمحافظة على جنوبيها اذ لاحيلة لها في صيانتها ولذلك رأت

الاكثر مناسبة ان يعود امين باشا منها ويتركها كما تركت سواها، على ان الحكومة المصرية والانكليز معاً تركوا الحكم في هذه المسألة لامين باشا اذا شاء البقاء بقي واذا شاء المجيء جاء . والآن اشرع في وصف رحلتنا بوجه الاختصار بعد قيامنا من زنجبار ومرورنا برأس الرجاء الصالح ووصولنا الى مصب نهر الكونغو في غربي افريقية

لما اتينا مصب نهر الكونغو قيل لي اني لا استطيع القيام من نقطة بنانا قبل ستة اسابيع ولكنا قمنا منها في اليوم التالي . ولما وصلنا الى بركة ستانلي اروني سفينة من احسن السفن التي تسافر في الكونغو الاعلى وكانت باليةً من طول الزمان وقد مضى عليها اشهر وهي ترمم فقال لي الناس جميعاً انكم لا تستطيعون المسير من هنا قبل اواسط مايو فطلبت سفينةً من سفن المرسلين الذين هناك فاجابوني انهم لا يقدرون ان يجيبوا طلبي .فلما اتينا شلالات ستانلي عرض عليَّ كل ما هناك من السفن فسافرنا في الحال خوفاً من ضياع الزمان وكنت قد استصحبت شيخاً نحاساً سلاًّ باً نهاباً يقال له تبوتيب ولما كان لا بد لي من المرور في جانب من البلاد الخاضعة له ولم يكن مأذوناً لي بمقاتلة احد اولمت لهُ الولائم واحسنت لهُ المعاملة وعرفتهُ بالقوم كأنهُ ليس من ذوي البغي والفساد فرأى في البيض ما اقنعهُ بانهم يعاملونهُ احسن معاملة اذا وفى عهوده بالصدق والاستقامة . ولما كنا في رأس الرجاء الصالح قال على مسمع مني ان البيض اناس صغار العقول فلما رأى عظم افعالهم قال لي كنت اظن ان البيض قوم مجانين فعلمت اليوم انهم ليسوا بلا عقول فقلت له وستعلم بعد ما لا تعلمهُ الآن وتحكم ان الانكليز لا يقصرون عن العرب حذقاً وادراكاً . وذهب تبوتيب معنا الى شلال ستانلي ونزل هناك بناء على وعده بان يقدم لنا ٦٠٠ حمال لحمل المهمات والذخائر فاني كنت قد احضرت معي ما يلزم لتجهيز امين باشا اذا شاء البقاء في مديرية خط الاستواء ودبرت للحالين قبل المسير حتى اذا بقي جهزتهُ بما يلزمهُ واذا لم يبق ارجعت المهمات معي ولذلك اخذت معي شيئاً كثيراً لم تكن حملتنا لتحتاج الى عشره . فعشرون صندوقاً من الذخائر تزيد عما يلزم لحملتنا حال كون ٢٠٠ صندوق لا تكفي حاجة امين باشا وقومه

ولما سافرت من انكلترا كنت اظن انهُ في معظم الشدة واشد الضنك وذلك كان ظن الناس جميعاً حتى اجمعت الجرائد على وجوب المبادرة لاغاثته لئلا يصيبهُ ما اصاب غوردون ولما كانت السفن على الكونغو الاعلى غير كافية لنقل رجال الحملة كلهم

بما معنا من الذخائر والمهمات اضطررت ان اترك جماعة من قومنا تحت قيادة برتلوت وغيره من الضباط في محلة هناك لينتظروا وصول اللوازم التي تخلفت عنا في الكونغو الاسفل . وكانت تلك المحطة منيعة حصينة وبجانبها حقول فسيحة مزروعة ذرة تقوتهم سنين عديدة واوصيتهم انهُ متى وصلت اللوازم والمهمات يقتفون آثارنا مع تبوتيب او بدونهِ في الادغال الممتدة امامنا فاعربوا جميعاً عن رغبتهم في اتباعنا ولذلك اصدرت لهم الاوامر اللازمة وقمت عاجلاً خوفاً على امين باشا . فسرت مع ٣٨٩ رجلاً والضباط الذين ترونهم بيننا الآن قاصدين بحيرة البرت بلا ابطاء . اما الادغال التي كانت تسد الفضاء امامنا فقد ادهشني كبرها وارهبني التفاف شجرها فجعلت اسأل الناس عنها وعما اذا كانت مأهولة او لا وعن مسافة امتدادها شرقاً فيجيبوني جميعاً الله اعلم فانا لم نسمع من عهد آبائنا واجدادنا ان لهذا الغاب نهاية فاذعنت انا وقومي لحكم الضرورة ودخلنا تلك الادغال وظللنا شهراً كاملاً نسير فيها بلا انقطاع ونحن لانرى شمساً ولا سماء لشدة التفاف الاشجار وتكاثف اظلالها ولا نرى هنا وهناك الا شعاعة من النور او ضوءاً ضعيفاً مستطيراً حتى مللنا المسير وسئمنا جميعاً بان المسير في تلك الحرجات اصعب ما قاسيناه من مشاق افريقية كلها

وبعد مسيرة ١٦٠ يوماً خرجنا منها الى العراء فانتعشت انفسنا بضوء الشمس ورؤية السماء واستنشاق لذيذ الهواء وجعلنا نعدو في المروج الخضراء كصبية بعثهم الصغر على البطر فرحوا وفرحوا من تلاعب النسيم في اطراف العشب الاخضر . وما انشرحت منا الصدور حتى اطبقت علينا قبائل قوية تتكلم لغة غريبة وهاجمتنا مهاجمة عنيفة حتى خلنا انها تريد صدنا عن كنز من أثمن الكنوز او انها انفاذ من تلك القبائل التي تهدد امين باشا . ولكنا فزنا بعد كل مقاومة بالوصول الى اطراف تلك الاراضي المرتفعة في ١٣ ديسمبر ورأينا بحيرة البرت تحتنا بالفين وتسعمئة قدم . فانحدرنا الفين وخمس مئة قدم مساء ذلك اليوم وسرنا في صباح اليوم التالي الى قرية في الزاوية الجنوبية الغربية من البحيرة وكنا لسبب ما الم بنا من الضعف والهزال قد تركنا زورقنا الفولاذي وراءنا ولم نجد في البحيرة قارباً يسع اكثر من اثنين معاً وسألنا اهل القرية فوجدنا انهم لايعرفون امين باشا ولا سمعوا باسمهِ وانهُ لايوجد في البحيرة قارب يصلح لنقلنا فرجعنا مسافة ١٩٠ ميلاً واحضرنا زورقنا ثم عدنا الى البحيرة بعد مضي اربعة اشهر

ولما انزلنا الزورق في البحيرة ركبهُ جفسن وبعض البحرية وسافروا حذاء ساحلها الغربي ليبحثوا عن مكان امين باشا ولم يمض الا ايام يسيرة حتى انشرحت منا الصدور برؤية الباخرة الخديوية قادمة تمخر الماء قاصدة محلتنا . وبات امين باشا والمسيو كاساني تلك الليلة عندنا ولم يطل علينا الاجتماع حتى اصلحنا ما كنا نتصوره عنهُ وعن مديريتهِ فعوضاً عن ان نرى رجلاً طويل القامة عسكري الهيئة كما كنا نتصور رأينا رجلاً قصير القامة قوي البنية — فصدق فينا قول من قال « ان الطيور على اشكالها تقع » وعلمنا ان أورطتهُ الاولى قد تمردت وعصت منذ اشهر كثيرة وان كثيراً من محطاته واقع في قبضة العصاة وان بقية الاورط من الجنود القانونية المنظمة تلتمس عذراً لشق عصا الطاعة وغير القانونية تنتظرها لتحذو حذوها . فبقينا ستة وعشرين يوما معاً وكنت في اثنائها احاول الوقوف على افكار امين باشا لاعلم ما اذا كنا نحظى بمسيره معنا الى البحر او يبقى مع قومه في افريقية فكان يجيبني على الدوام حيث يذهب قومي اذهب وحيث يبقون ابقى فسألت كاساني عما اذا كان يشرفنا برفقته فاجاب اذا ذهب سعادة المدير ذهبت واذا بقي بقيت وسألت الضباط فاجابوا عين ذلك الجواب وبقوا عليه مدة الستة والعشرين يوماً ولم يشأ احد ان يجاوبني صريحاً عن بقائه او مجيئه معنا لان امين باشا كان يريد ان يشاور قومه في ذلك ويعلم ما يقولون قبل ان يجاوبني قطعياً ولحظت على توالي الايام انه راغب في العمل ميال الى البحث والاكتشاف لانه من المجتهدين طبعاً فكانت مراقبة الطبيعة ودراسة اسرارها تلهيه عن مصابه وتكسبه السعادة في قلب افريقية ولو كلف ان يقضي ساعاته في قهوة من قهاوي العاصمة لكان اشقى الناس حالاً واكثرهم زهداً في الحياة . واما في افريقية فكان سعيداً لاعتقاده انهُ يصنع خيراً

فلما لحظتُ ان امين باشا يبغي البقاء في افريقية وكنت راغباً في الوقوف على جوابهِ القطعي قلت له اني اعرض عليك ثلاثة امور. اولاً ان تكون مديراً على هذه الديار كما انت الآن براتب الف وخمس مئة جنيه في السنة ومال قدره اثنا عشر الف جنيه سنوياً لادارة مهامها. هذه فرصة لك فاجبني الجواب الصريح عنها. وثانياً أن آخذك الى بلاد في هذه القارة من اجمل ما اكتحلت برؤيتهِ عينك فتسكنها مطمئناً آمناً من غزوات الدراويش وهجمات الثائرين واجعلك حيث يكون لك اتصال دائم بالبحر وحيث تأتيك الذخائر والمهمات على الدوام فتنال فيها مني نفسك ويدفع لك فيها راتب

يوافق مقامك ودراهم تكفي لجنودك . نعم اني غير مفوض بان اعرض عليك هذا الامر ولكني اتكفل لك بهِ واكون مسئولاً لديك عنه. ولا انكر ان أول واجب عليَّ هو لسمو الخديوي المعظم ولكنهُ قد امر بقيامك من هنا ومرافقتك لنا الا اذا ابيت انت ذلك وبما انك لاتريد مرافقتنا اعتقاداً منك بان قومك لايرافقونك وانا قد اتيت هذه الديار لاخلص لك الخدمة فها انا قد عرضت عليك هذين الامرين عدا الامر الثالث وهو مرافقتنا لاقضي ما يجب عليَّ من خدمتك. فصمت ولم يجاوبني جواباً قاطعاً لسبب سر خفي لااعلمه وكان القلق قد اشتد بي لطول انقطاع اخبار برتلوت ورفاقهِ عني وصرت ارى من الضرورة التفتيش عنهم فقلت لهُ اذا كنت لاتستطيع ان تجيبني في الحال فاني امهلك مدة غيبتي عنك لتفكر في الجواب وتجزم الامر الذي يقر عليهِ رأيك

فسرنا حتى اتينا قومنا المتأخرين فوجدنا النوازل قد ألمت بهم وضعفت احوالهم ثم عدنا الى نيانزا رابع مرة واول خبر قرع مسامعي فيها بعد وصولي اليها ان امين باشا مسجون في مديريته ولم يبق عنده خدام ولا جنود وانهُ مقيد اليدين والرجلين فتصوروا انفسكم مكاني تعلموا ما خامرني بعد ما اتيت قلب افريقية لانقاذه ولقيت هذه النوازل مجتمعة امامي فكانت غاية سعينا واجتهادنا ان نسمع بسقوط المديرية وسجن امين باشا وخسارة ضابطي بعد ما خسرت اثنين قبله ومئات آخرين من رجالي وامسيت في خطر من ان افقد كثيرين غيرهم ايضاً . فرأيت بادئ الامر ان استعلم عن احوال سجنهِ واسبابهِ ثم أنظر في طريقة انقاذه . فقيل لي ان الذين سجنوه هم جنوده وذلك لانهُ وضع نفوذه عندهم في غير موضعهِ وانهم عن قريب يطلقونهُ لكن ضابطي اخبرني ان ذلك غير صحيح وان المديرية قد سقطت سقوطاً لا تقوم لها قائمة بعد فقلت اني انتظر كل هذه الايام لاقف على جواب الاوربيين الذين هنا واعلم ما اذا كانوا يرجعون معي او يبقون في هذه الديار فان كان امين باشا قد بات اسيراً ولا يقدر ان يخبرني عمن يستلم المهمات التي جئتهُ بها او هل يقبل دعوة سمو الخديوي بالرجوع معنا فما لي الا ان اتلف هذه المهمات وآمر بالرجوع . فكتبت الى امين باشا بذلك فكان جوابهُ حضوره بنفسهِ في احوال غير منتظرة وذلك انهُ بعد ما تمرد الجنود عليهِ غزاهم الدراويش واستولوا على اربع محطات من محطاتهم وعلى كثير من ذخائرهم ومهماتهم والقوا الرعب في قلوبهم فقالوا في انفسهم خير لنا ان نسترضي الخليفة

في الخرطوم بالقاء القبض على هذه الحملة التي اتت وتسليمها كلها ليده والحصول على الكرامة والشرف عنده من ان نتبع مديرنا ونلقي نصيبنا من نصيبهِ فما قولكم لو كنا الآن عبيداً وسياساً للمهدي بعد ما اوغلنا في قلب افريقية واعدين النفس بتحصيل المنى وتحقيق الاماني

ولا يخفى ان اولئك الجنود كانوا منغمسين في المكايد غمساً وروح العصيان يسري في عروقهم وان كثيرين منهم كانوا من قوم عرابي فاتفق رأيهم على ان يأتوا محلتنا ولكنهم علموا انهم اذا اتوا اليّ وحدهم يكون اول سؤالي لهم اين مديركم واين ضابطي فلذلك رأوا انهم لا يتمكنون من مقابلتي الا اذا اطلقوا سراحهما واعتذروا لمديرهم عما فرط منهم .ثم اعترفوا باني مرسل لاغاثة مديرهم من قبل سمو الخديوي المعظم وان الاوامر التي معي رسمية صحيحة فوعدهم امين باشا بالعفو عنهم وتعريفهم بي واتوا محلتنا معهُ ليستعلموا بانفسهم عن قوتنا ويعرفوا سذاجتنا من براعتنا

فلما وصلوا مدحهم امين باشا لسوء الحظ واطنب ولكني كنت مرتاباً فيهم لكثرة ما بلغني عنهم ورؤية كثير مما لا يرضي منهم ولم اصدق دعاويهم واقوالهم لاسباب كثيرة غير انهم قالوا اننا اذا امهلناهم جمعوا العيال والجنود وجاءوا معنا الى مصر ليرفعوا شكرهم لسمو الخديوي على ما انعم به عليهم . وكانت ظواهر الصدق والاخلاص بادية على كلامهم وهيئتهم تدل على ندامتهم وتوبهم بحيث لا يسع الساذج الا تصديقهم فامهلتهم بطلب امين باشا مدة ٢٠ يوماً كما اشار فرجعوا على البواخر الى وادلاي وسرقوا معهم بندقية من صنع رمنتن وهم راجعون

وصبرنا حتى مر ثلاثون يوماً ولم يأت احد ولكن اتتنا كتابات كثيرة من وادلاي بحدوث الفتن والمكايد وان الناس انقسموا حزبين احدهما ناصر لفضل ملى بك والآخر لسليم بك والحرب بينهما سجال. وكان امين باشا لا يزال مقتنعاً بصدق قومهِ فلما مر الثلاثون يوماً طلب الي ان اطيل المهلة فامهلتهم ١٤ يوماً ايضاً واجلت المسير الى ١٠ ابريل . وفي ٥ ابريل وجدنا ان الذين لجأوا الى محلتنا من اهل المديرية يحاولون سرقة بنادق اخرى في الليل ثم تبينا في اليوم التالي انهُ لا يوجد الا رجل واحد يقصد مرافقة امين باشا من ستمئة نسمة لاذوا بجمانا وكان امين باشا معتقداً بامانتهم واثقاً بوفائهم .

فحينئذ جمعت القوم واخبرتهم اني استلمت زمام الامور منذ ذلك اليوم فالذي لا يطيع اوامري يقتل بالرصاص فكفوا عن الدسائس ومحاولة سرقة البنادق مدة من الزمان . وفي ١٠ ابريل قمنا من جوار بحيرة البرت بالف وخمسمئة رجل وبعد مسيرة عشرة ايام اضطررنا الى الوقوف لمرض شديد اعتراني على مسيرة ثلاثة ايام من نيانزا فاصبحت محلتنا محطاً للدسائس والمكايد وسرقة البنادق وكان النساء يهربن ويوافين الرجال في محطة قديمة لنا على نيانزا ولثقل المرض عليَّ لم استطع الا على وسوسة بعض الاوامر ولكن الضباط الذين كانوا معي كانوا من ذوي الهمة والمقدرة فسار الملازم ستيرس منهم الى نيانزا وامسك كل الذين كانوا قد فروا اليها ومن جملتهم رجل يقال له ريحان وكان اصل تلك الدسائس كلها فشكل مجلساً وحاكمهُ محاكمة طويلة ثم حكم بوجوب قتله واصر على تنفيذ الحكم فوقعت على الحكم وقتل ريحان وكان ذلك آخر الاتعاب التي تحملناها من سكان المديرية الاستوائية

وفي ٨ مايو ١٨٨٩ سرنا قاصدين الاوطان فلما اخترقنا الهضاب الواقعة غربي بحيرة البرت اكتشفت اكتشافاً عظيماً في وادي سمليك وهو نهر يجري فيه ويستمد ماءه من اثنين وستين جدولاً تنحدر عن سلسلة جبال علوها بين سبعة عشر وتسعة عشر الف قدم . واتضح لي لدى مراجعتي ما كتب عن تلك البلاد ان جغرافياً عربياً اسمهُ شياد الدين (كذا) وعصره القرن الرابع عشر للميلاد وصف هذا النهر وصفاً بديعاً ودقق فيه بما لم يبعد عن الحقيقة . قال ان خط الاستواء يقطع جبال القمر وتنحدر عن هذه الجبال سيول وجداول كثيرة غربي نهر يصب في بحيرة عظيمة ينشأ النيل الابيض منها ويجري الى بلاد مصر اه . وهذا وصف صحيح لم يزد الخطأ فيهِ عن اميال يسيرة. والغريب اننا نكتشف الآن ما كان معلوماً عند الخلفاء والبطالسة والفراعنة قبلهم وحفظ في آثارهم التي توارثها الخلف عن السلف حتى اتصلت بجغرافي العرب في زمانهم ثم عفت آثارها وطمست اخبارها حتى عدنا فكشفناها في زماننا. وقد اسعدنا الحظ في مسيرنا اننا رددنا بعض الرواسب الملحية الى اصحابها وقد اجرينا العدالة في عملنا هذا لاعتراض تلك الرواسب في طريقنا فنلنا عليهِ ما لا يوصف من الاكرام والضيافة على الرحب والسعة

نعم ان ولائم المتمدنين فاخرة وشاهدنا هذه الوليمة التي هي من اخر ما رأيت

ولكن ما قولكم في اهل افريقية المتوحشين الذين ضافونا مجاناً ضيافة لامثيل لها فاطعموا ثمانمئة نسمة منا اخر اطايب ارضهم من لحم البقر ولحم الضأن والخضر والاثمار مدة ثمانية اسابيع متوالية ولم يقبلوا منا عوضاً عنها ولا ثمناً بها وكانوا يحسبون قبولنا لها منهم منة عليهم وفخراً لهم . وبينما نحن نستشرف بحيرة فكتوريا رأينا صليباً فعلمنا اننا وطئنا اراضي المتمدنين ثم خرج المستر مكي المبشر الانكليزي لمقابلتنا وكان اول كلمة انكليزية سمعناها ان الانكليز يفتخرون بفعالنا . ولم يحدث ما يستحق الذكر مدة سفرنا من بحيرة نيانزا الى سواحل البحر سوى اننا التقينا بالالمان في اطراف بلادهم الجديدة في شرقي افريقية فاكرم ضباط الماجور وسمن ملقانا ثم متعنا وسمن باطايبه فتغيرت بملذاتها مناظرنا حتى زعم الذين رأونا على الساحل ان هيئتنا لاتدل على صدق رحلتنا . ولما وصلنا بغمويو وشاهدنا البحر حييناه تحية مشتاق اشتد به الوجد من طول الفراق وادب لنا هناك مأدبة من اخر ما أدب في تلك الاقطار وحضر المأدبة ستون او سبعون مدعواً وكانت خمورها طيبة وخطبها رنانة فلما فرغت من خطبتي قام امين باشا وشرب على صحة امبراطور المانيا ثم وقف المدعوون جميعاً وغنوا . وبينما انا احادث وسمن بعد ذلك اتانا خبرمشوم وهو ان امين باشا سقط عن ممشى القاعة على علو عشرين قدماً الى الشارع فوثبنا من مجالسنا وكثر الاختلاط ونسينا الوليمة وهرعنا الى محل الحادثة المكربة فوجدنا امين باشا محمولاً الى المستشفى فتبعناه واذا هو ملقى على سرير ومنظره يفتت الاكباد ومن بعد ما كان فرحاً مفتخراً واصوات الترحيب ترن في اذنيه أمسى محطماً على آخر رمق . فقلت لا حول ولا . ان الانسان في تفكير والله في تدبير . ولطالما اتاني في حياتي ما اراني ان قوة خفية تدير احوال البشر وهذا من اعظم الشواهد عليها . فقد انقذنا امين باشا من مخالب المهدويين واتينا به سالماً مسافة ١٤٠٠ ميل حتى وقف بين بني وطنه مكرماً مبجلاً تولم له الولائم بعد خدمة ثلث عشرة سنة في قلب افريقية . وكانت هذه هي العاقبة انهُ يمسي في لحظة مجاور الاموات لعارض عرض لهُ . نعم ان شفاءه لايزال محتملاً ولكن اناساً من الذين هم كفء للحكم يرتابون في امكان شفائه

هذه هي قصة رحلتي ايها السادة واخاف ان اكون قد اطلت عليكم الكلام وان اكن لم اقل الا اليسير فعندنا ما لا يحصى من الحوادث والنكت التي تضحك وتبكي وتسر وتحزن ولكني لا اتعرض لها لان الزمان قد فات وغيري يرغب في الكلام ثم

شكر الحكومة المصرية على ايلامها تلك الوليمة لهُ وشكر الحضور على ترحيبهم بهِ. وبقي في القاهرة حتى كتب رحلتهُ ونشرها في انكلترا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة في وقت واحد وذلك في شهر يونيو سنة ١٨٩٠ وهي في مجلدين وجعل اسمها « في اظلم افريقية » كأن الغرض الاكبر من رحلتهِ نشر هذا الكتاب والاكتساب بهِ

ولما عاد الى بلاد الانكليز قوبل بما لامزيد عليهِ من الاكرام ومنح رتبة دكتور في الشرائع المدنية من مدرسة اكسفرد ومدرسة كمبردج ومدرسة درهم واقترن بالسيدة دوروثي تنت في كنيسة وستمنستر كانهُ ملك من ملوك الزمان

ومنح حرية مدن انكلترا واعطي الرعوية الانكليزية بعد ان فقدها باقامتهِ في اميركا وتجنسهِ بالجنسية الاميركية . وانتخب عضواً في مجلس النواب وفرستهُ[1] الملكة فكتوريا سنة ١٨٩٩ فصار يلقب بالسر هنري ستانلي وابتاع ارضاً زراعية اقام فيها وجعل دأبهُ الاعتناء بالزراعة والاحتفاء بالذين يزورونهُ فيها من جلة القوم . وسيبقى اسمهُ مقروناً باكتشاف مجاهل افريقية وترغيب الدول الاوربية في اقتسامها وامتلاكها وكان قصير القامة اسمر اللون براق العينين فصيح المنطق شديد العزيمة

وكانت وفاتهُ في العاشر من شهر مايو من غير عقب ووردت رسائل التعزية على زوجتهِ لادي ستانلي من الملوك والعظماء والعلماء ومنها رسالة من ملك الانكليز بخطهِ قال فيها : لقد كان من نصيبي ان تعرفت بزوجك الذي امتاز على الاقران وكثيراً ما سمعتهُ يقص اخبار رحلاتهِ الكبيرة واكتشافاتهِ العظيمة والخدم الجليلة التي خدم بها العالم المتمدن . وان الشهرة الفائقة التي حازها ستحيا بعده دواماً

وصلي عليهِ في كنيسة وستمنستر في السابع عشر من الشهر وحضر الجنازة الشريف سدني غرفل نائباً عن ملك الانكليز والكونت ده لالنغ نائباً عن ملك بلجيكا وكثيرون من اشراف الانكليز وعظمائهم من مثل لورد ربرتس ولورد نيوبورت ودوق ابركرن ولورد لنداف ولورد راي ولورد غراي ورؤساء الجمعيات ونوابها . وخلاصة القول انهُ لقي من اكرام قومهِ في حياتهِ ومماتهِ ما هو حقيق بهِ وما يهون اقتحام المخاطر على طلاب المعالي (مقتطف يونيه سنة ١٩٠٤)

(١) استعمل كتاب العرب هذا الفعل في زمن الفروسية كما يستعمل الانكليز فعل Knight

سفدج لندر واختراق افريقية

لقد اخترقت افريقية من شرقها الى غربها في اوسع عرض منها وقضيت في ذلك ٣٦٤ يوماً في الحل والترحال واضطررت ان اعرّج مراراً واسير في طرق ملتوية فبلغت المسافة التي قطعتها ٨٥٠٠ ميل . قمت من جيبوتي في املاك فرنسا وقطعت بلاد الحبشة الى نهر باروا وزرت القبائل النازلة الى الشمال والجنوب من نهر السُبت وهو امتداد نهر باروا وكان سفري كلهُ على الخيل والبغال الى ان وصلت الى النيل على سبعين ميلاً من كوك (فشودا) جنوباً ومن ثم قطعت بحر الغزال والحراج التي تليهِ الى نهري مبومو واوبنغي في بلاد الكونغو الفرنسوية وزرت في طريقي ولاية الكونغو الحرة . ولما وصلت الى حيث ينحرف نهر اوبنغي الى الجنوب سرت في جهة شمالية غربية مع جماعة من رجالي نحو بحيرة شاد وعبرتها ولكنني لم اواصل السير هناك غرباً بل ارتددت شرقاً لاني اردت ان اتفحص بعض المنخفضات في صحراء الكانم وزرت في طريقي بعض القبائل النازلة شمالي بحيرة شاد وعبرت بلاد الشتاتي ودرت جنوباً الى ان وصلت الى الطرف الشمالي الشرقي من بحيرة شاد وقطعت ٨٥٠ ميلاً من الصحراء راكباً على الجمال الى ان وصلت الى النيجر بطريق سوق زندر ثم سرت بقارب ٦٨٠ ميلاً فوصلت الى مدينة تمبكتوا وواصلت السير في النيجر وعبرت نهر السنغال الى ان وصلت الى الراس الاخضر وهو ابعد نقطة من افريقية غرباً

وقد استعملت في رحلتي هذه كل انواع المطايا الخيل والبغال والحمير والثيران والجمال والقوارب الخشبية والحديدية والارماث. ولم يكن معي في وقت من الاوقات اكثر من ثلاثين دابة للحمل ولا اكثر من اربعين رجلاً . ولم اكد اقطع ثلث هذه المسافة حتى فارقني كل رجالي وذلك في اصعب الاماكن في قلب افريقية ولم يبق معي الا رجل واحد من اهالي الصومال فاحتلت انا وهو على تسيير قافلتنا وعبور الحراج بها وكانت الامطار تتدفق علينا تدفقاً واستخدمت رجالاً غير الذين تركوني ولكني لما مررت في بلاد التوارك لم يبق معي منهم سوى ثلاثة وست جمال وجن اثنان من الرجال . . وكنا نقطع ٢٣ ميلاً كل يوم والعادة ان اصحاب الرحلات لا يقطعون

هناك اكثر من عشرة اميال في اليوم . واطول مدة استرحت فيها ١٢ يوماً لما بلغت النيل وعشرة أيام في تمبكتو

وكان اكثر سيرنا في بلاد وبيئة انتشرت فيها الحمى الملاريا ولما وصلت السنغال كانت الحمى الصفراء ضاربة اطنابها فيها . ولما بلغت الساحل الغربي ركبت سكة الحديد الفرنسوية ولكن اتفق ركوبي في مركبة فيها رجل فرنسوي مصاب بالحمى الصفراء فاضطررت ان اقيم في الكورنتينا . ولم يكن معي ادوية تستحق الذكر في كل سفري ولا آلة لترشيح المياه .ولا اهتممت بلذع البعوض ولا بالوسائل الطبية وكانت النتيجة اني عدت الى اوربا وانا على تمام الصحة ولم البس في هذه الرحلة خوذة تقي من الشمس ولا ثياباً تقي من المطر بل لبست ثيابي العادية التي البسها في مدينة لندن وقطعت هذه المسافة كلها وليس معي شيء من الاسلحة ولا سكين صغيرة الا ان رجالي كانوا مسلحين بالبنادق الكثيرة الطلقات ولكن قلما كنت اعطيهم خرطوشاً ولم يكن معي رجل ابيض وقد قمت وحدي بكل نفقات هذه الرحلة

هذه خلاصة رحلتي والآن اشرحها لكم باكثر تفصيل واسهب في وصف غريبة او غريبتين من الغرائب الكثيرة التي لقيتها فيها

لم يكن اختراق بلاد الحبشة من الصعاب ولكنني خفت من حدوث ما لا يحمد في سكة الحديد من جيبوتي الى دير دوى مسافة ١٩٠ كيلو متراً لكثرة اهتزازها ولما بلغت دير دوى مضيت الى مدينة هرر وقابلت رأس مكنن وهو من اقدر رجال الحبشة . ولما عدت الى دير دوى نظمت قافلتي واتجهت نحو العاصمة وسرت في بلاد تكاد تكون قفراً وزرت في طريقي كثيراً من قبائل الدناكل وهم اقوام لا بأس بهم ولكنهم كثيراً ما يقتلون الغرباء الذين يمرون في بلادهم ويمثلون بهم وكانوا قد قتلوا رجلين من العرب ورجلاً من الاحباش قبلما اخترقت بلادهم بايام قليلة . وقد خاف منهم الجنود الاحباش الذين اتوا معي لحمايتي . وبلغت اديس ابابا عاصمة الحبشة بعد سير اثنى عشر يوماً ونزلت ضيفاً على السرجون هرنجتون سفيرنا لدى الامبراطور منليك وعلى الاوربيين القلال العدد الذين هناك . ولقيت من الامبراطور كل حفاوة واكرام . واديس ابابا اشبه بمعسكر كبير منها بمدينة وقصر منليك او قصوره فيها اشبه بمعمل كبير منها بقصور الملوك فان داخل أسوارها مضرب النقود والآلات البخارية والورش المختلفة ومنليك يقضي اكثر اوقاته فيها لا على عرشه لانهُ يكره السياسة

والسر جون هرنجتون رجل مقتدر وبحنكتهِ وحسن تدبيره بقي اسمنا مكرماً في بلاد الحبشة ولولاه لخسرنا ماكان لنا من النفوذ وخرجنا من تلك البلاد صفر اليدين . اما الآن فلا خوف على نفوذنا هناك والفضل كل الفضل لهذا الرجل . وكل من يزور بلاد الحبشة يقول ان فيها رجلين يخشى بأسهما ويحمى جانبهما وهما الامبراطور منليك والسر جون هرنجتون . والامبراطور يعتمد على السرجون ويقدر مشورته قدرها . وعندي ان كثيراً من الاصلاح الذي تم في بلاد الحبشة كان بمشورته

وكلمة الامبراطور نافذة في رعيته وهم يعبدونه عبادة كانه اله ويشاركهم في ذلك غير الاحباش من القبائل الخاضعة لهم وكلمته شريعة لهم وأمره مطاع فيهم ورجاله يتغلبون على اعدائهم بما لهم من الهيبة في النفوس لا بمهارتهم الحربية فاذا توفي منليك لم يسهل على من يخلفه أن يقبض على زمام البلاد لا سيما وأن عيون الدول الاوربية طامحة اليها من كل الجهات

ومنليك من أعدل الملوك واكرمهم وأشدهم رزانة . ولو كان أصغر سناً وساح في اوروبا لعاد منها بأمور كثيرة تأول الى اصلاح بلاده. وكل ما تحتاج اليه بلاد الحبشة حكومة منظمة وشرائع ثابتة

ولم أجد كبير صعوبة في المسير من تلك البلاد الى نهر السُبت . ولقيت في طريقي قبائل الغالا في غربي بلاد الحبشة وهم يكرهون الاحباش مع انهم خاضعون لهم . واذا مات منليك فلا يبعد أن يخلعوا طاعة الأحباش ويستظلوا بالعلم البريطاني . وهم أهل نظر يحرثون الأرض ويربون المواشي ولهم المام بالتجارة ويدينون بالاسلام

والجانب الغربي أخصب بلاد الحبشة وهو معتدل الهواء لارتفاعه ويسهل اصلاح زراعته وفيه البن البري وهو من أفخر أنواع البن والصمغ الهندي ومعادن كثيرة ويجمع التبر من مسيل نهر باروا

ويلي الأرض المرتفعة أرض منخفضة من أملاك الحبشة يديرها اناس من حكومة السودان وهناك يسكن النيمبو وهم جيل من الناس طوال القامة جداً كأنهم الجبابرة

وأول نقطة فيها مأمور مصري جمبلا وهي خبيثة الهواء لا تبقي على انسان ولا حيوان رأيت فيها بعض تجار اليونان وكلهم في حالة يرثى لها من فعل الحمى الملاريا بهم ورأيت على قبر الجنرال غاتكر قطعتين من الخشب في شكل صليب وكثيراً من الشوك منعاً للضباع من نبش الجثة واكلها

ولقيت قبائل النوير جنوبي نهر السُبت وهم أقوام غريبو الاطوار لا يأتمنون أحداً ولا يأتمنهم أحد عندهم كثير من المواشي لكنهم لا يبيعون منها ولا يقايضون وثيرانهم ليست أقل شراسة منهم فكانت تهجم على دواب قافلتي حيثما رأتها ورجالهم يطلون أبدانهم بطلاء أبيض واما نساؤهم فيحافظن على لونهن الأسود ولا يلبسن الا أبسط الملابس الطبيعية . وكلهم ممتازون بطول أرجلهم ويطلون شعورهم بطلاء لزج ويجمعونها معاً في شكل مستدق وهذا الطلاء يصبغ الشعر بلون احمر . ويدل طول سوقهم على أنهم مخلوقون ليعيشوا في بلاد كثيرة المستنقعات كأنهم طيور الماء وكثيراً ما ترى الواحد منهم واقفاً على رجل واحدة كأنه مالك الحزين

وقد اضطررت أن أعبر نهر السُبت مراراً كثيرة وهو عميق سريع الجري فكنت أجد مشقة كبيرة في عبره برجالي وبغالي وكانت البغال تسبح سباحة ونحن نطلق البنادق حولها خوفاً من التماسيح وكابدنا مشقات كثيرة الى أن بلغنا التوفيقية على النيل وهي أقفر بقاع الأرض (١) وهناك حامية من الجنود السودانية

ولما دنونا من النيل دخلنا بلاد الشلوك وقد كانوا اكثر عدداً وأقوى صولة منهم الآن ولكن حملات الدراويش والمصريين والنخاسين بددت شملهم وكادت تقرضهم ويظهر من انتشار لغتهم انه كانت لهم صولة واسعة فاني رأيت الناس يتكلمونها أو يفهمونها في عالية الحبشة و بلغني أن الامر كذلك في الجنوب حتى فكتوريا نيانزا. وهم فريقان أحدهما يعترف بالقرابة بينه وبين النوير ولا سيما بين الدنكا . واكثر الشلوك الآن على ضفة النيل الشمالية بين بحيرة نو ومصب السُبت وبلادهم سهل فسيح تكثر فيه الاعشاب الكبيرة وتخترقه الخيران الكثيرة والمنخفضات التي يغمرها الماء زمن فيضان النيل وليس فيها الا قليل من شجر الدوم والهجليج والدلب ويفسد هواؤها في فصل المطر

وقلما يتزوج الرجل من الشلوك بغير امرأة واحدة لغلاء مهر النساء فان مهر الزوجة لا يكون أقل من ثلاثة ثيران أو أربعة أو أربعين رأساً من الغنم أو المعزى عدا الهدايا التي يهديها الخطيب الى أهل الفتاة قبل الاتفاق على مبلغ المهر وتعد الثيران أو الغنم أو المعزى التي يتفق عليها بقطع من القش توضع على الأرض وقت الخطبة فاذا تم

(١) (المقتطف) وصلنا اول تلغراف منه من التوفيقية

الاتفاق بين الخطيب وأهل الفتاة على المهر أخبروها بذلك حتى اذا قبلت أهدى اليها الخطيب سواراً من النحاس أو العاج فتلبسه بذراعها . وقد يتزوج احدهم بفتاة ويعد أهلها بالمهر ثم يعجز عن الوفاء بوعده فتؤخذ زوجته منه . وبعض الشلوك ينزعون الثنيتين والرباعيتين من الفك الاسفل كما تفعل بعض القبائل في قلب افريقية

والبلاد حول بحر الغزال من اقبح البلدان وقد اتفق اني مررت فيها من مشرع الرق الى واو في اشد شهور السنة حراً وجفافاً قبل فصل المطر وكثيراً ما كنت اعجز عن استقاء الماء الكافي لما معي من الدواب من الآبار التي هناك

والدنكا أقارب الشلوك جاء اسمهم على ما اظن من دنجو الذي يقال في تقاليد الشلوك انهُ كان أخاً لجواكنجو وهما اول من ظهر من قومهما في تلك البلاد فاختصم الاخوان وعبر دنجو النيل وسكن على ضفتهِ اليمنى ومنهُ جاءت قبائل الدنكا

ولما قطعت بلاد بحر الغزال ووصلت الى ديم زبير سرت في الحراج الاستوائية متجهاً الى الجنوب ومررت على كثير من القبائل في اطراف بحر الغزال . اما قبائل النيام نيام فليس هذا اسمهم بل هو لقب ضعة يلقبهم بهِ غيرهم واما هم فيسمون انفسهم اسنده من سنده اي تحت .وقد رأيت بعضهم وهم مشوهو الخلقة بطونهم كبيرة ورؤوسهم مستطيلة بلهٌ خبثاء لا يؤمن شرهم لكني وجدت في لغاتهم اموراً تدل على انهم منحطون من اصل مرتق وهذه الامور قد تكون عرضية ولكن سواء كانت عرضية او غير عرضية فهي مما لم ار لهُ مثيلاً في الايطالية والفرنسوية والالمانية والاسبانية والبرتغالية والانكليزية فاذا اراد الواحد منهم ان يضيف اليه شيئاً غير حي خارجاً عنهُ استعمل ضمير المتكلم المضاف اليهِ كما تقول بيتي ورمحي ولكن اذا اراد ان يضيف اليهِ شيئاً متعلقاً بهِ مثل ابيه ويده لم يقل كما نقول نحن ابي ويدي بل اضافهُ الى ضمير مثل الضمير المرفوع عندنا كأنهُ يقول اب انا يد انا للدلالة على ان المضاف من اهله او من نفسهِ . وبعض الاسماء عندهم مستعار من الحوادث الطبيعية او من عالم النبات فمعنى اسم اللحية عندهم مطر الذقن ومعنى اسم الراحة ورقة الذراع ومعنى اسم الظفر قشر الاصبع واسم القدم ورقة الساق ويسمون النجوم بما معناه اعداء الشمس . وللواحد والاثنين والثلاثة الى الخمسة اسماء مفردة واما الستة فاسمها واحد من اليد الاخرى والسبعة اثنان من اليد الاخرى والثمانية ثلاثة من اليد الاخرى والاحد عشر واحد من القدم والستة عشر واحد من القدم الاخرى والحادي والعشرون

رجل واصبع والحادي والاربعون رجلان واصبع والحادي والستون ثلاثة رجال واصبع وهلم جرّا

وكان غرضي الوصول الى مملكة زميو وهي اكبر الممالك في اواسط افريقية فقطعت الحراج لهذه الغاية وتركني حينئذ كل الرجال الذين كانوا معي ما عدا واحداً من اهالي الصومال فسقنا القافلة وحدنا وكان فصل المطر فمات اكثر الدواب التي معي وكان الحر شديداً يزهق النفوس والارض مستنقعاً متصلاً والاشجار تلطم الاحمال على ظهور الدواب فتحلها او توقعها ونضطر الى ربطهـا مراراً في اليوم والامطار. تنصب علينا كافواه القرب والاشواك والادغال تنشب في اقدامنا واصبنا كلانا بالحمى ومضى علينا شهر ونحن على هذه الصورة نقاسي اشد المشاق الى ان بلغنا نهر مبومو وكان في قافلتي ثلاثون دابة بين بغال وحمير فلم يبق منها سوى اربعة حمير فاسترحت هناك يومين استرجعت فيها قوتي وعدت الى مواصلة المسير

وعلى نهر مبومو ونهر اوبنغي قبائل كثيرة اكثرها من اكلة لحوم البشر والنهران يفصلان بلاد الكونغو الحرة عن الكونغو الفرنسوية وما رأيتهُ من بلاد الكونغو الحرة يدل على حسن الادارة فيها واهاليها على تمام الرضى وقد اصلحت طرق البلاد وزراعتها وما يشاع على ضد ذلك غير منطبق على الحقيقة . والموظفون الايطاليون في حكومة الكونغو باذلون اقصى جهدهم في اسعاد السكان والسكان يحبونهم ويكرمونهم

وقد قطعت مراراً الطريق الذي مر بهِ الكولونل مرشان ورأيت الخريطة التي رسمها منطبقة غاية الانطباق على البلاد وهي في غاية الضبط والاحكام!

وقمت من اوبنغي باربعين حمالاً وسرت نحو بحيرة شاد وكان الفصل لا يزال ممطراً واضطررنا ان نقطع انهراً كبيرة ونمر على كثير من القبائل الغريبة الاطوار وفي جملتهم قبيلة المنجيا وقبيلة السنجا ونساؤهما يثقبن شفاههن السفلى ويدخلن في الثقب عوداً او عظماً او قطعة مستطيلة من البلور او يعلقن في الشفة العليا حلقةً كبيرة جداً حتى تطول الشفة بها وتتدلى وقد يعلقن حلقة بكل شفة من الشفتين!

وزرت بلاد الالمان في الكمرون ولقيت حسن الضيافة من الموظفين الالمانيين ووجدت انهم يحسنون الاعتناء بالسكان وان البلاد آخذة في الارتقاء بعنايتهم

وقد قيل ان ماء بحيرة شاد آخذ في النبوض ومن المحتمل انها تجف تماماً لكثرة التبخر منها ولان الانهر التي تصب فيها تحمل اليها كثيراً من الطمي فيرسب فيها

ويختلط بالنباتات التي تنبت وتيبس فيها فيعلو قاعها رويداً رويداً . ولا شبهة ان هذه البحيرة كانت في العصور الغابرة اوسع مما هي عليه الآن. وقد حفر الملازم فريدنبرج بئراً على بعد من البحيرة فوجد ترابها طبقات مترادفة من الرمال والمواد النباتية البالية وهي تدل على ان البحيرة كانت تغمر المكان الذي كانت قد حفرت فيهِ البئر وتبين كيف ترسب المواد النباتية والرمال بعضها فوق بعض

وسرت في نهر النيجر بقارب من الحديد فقضيت ٢٨ يوماً حتى وصلت الى تمبكتو ولم يسر القارب في مسيل النيجر نفسهِ بل في الارض التي طغى عليها ماؤه . ولا تسل عما لقينا من المشاق في طريقنا من القصب والحلفا ولا ما بلينا بهِ من البعوض. وكثيراً ما كنا نجد الجنادل في طريقنا والماء يجري بينها سريعاً مزبداً فنضطر ان نعود ادراجنا . واتفق مرة ان وصلنا الى شلال من هذه الشلالات فخرج الرجال من القارب وربطوه بالحبال من الجانبين لكي يمنعوه من الانقلاب وبقيت انا وحدي فيهِ والدفة في يدي وكانت امتعتنا فيهِ لكن المياه رفعته وقذفت بهِ فوقع الرجال الممسكون بالحبال في الماء وكاد بعضهم يغرق ودفع القارب الى اسفل وامتلأ ماء لكنني نجوت من الغرق وانقذنا القارب والامتعة

اما مدينة تمبكتو فمبنية على جانبي كثيبين من الرمال ممتدين شرقاً وغرباً فيها خمسة آلاف من السكان المقيمين واربعة آلاف من التجار الذين يترددون عليها اكثرهم من طرابلس الغرب ومراكش وغدنون وتدوف وطوات واهاليها يتكلمون بكثير من اللغات الافريقية

واسهب الخطيب في وصف معادن البلاد ونباتاتها ومدح الموظفين الفرنسويين على ما لقيهُ من كرمهم وقال ان العلماء منهم باذلون جهدهم في درس طبائع البلاد ومصادر ثروتها والاساليب التي تستثمر بها والضباط الذين يقودون جنود السنغال ماهرون في كل شيء، فتراهم يمسحون البلاد ويبنون البيوت ويحفرون الترع ويعلمون الاهالي كل ما يحتاجون اليهِ لمعيشتهم ورجال الادارة منهم من اكثر الرجال حنكة وامهرهم في اساليب السياسة . وختم بالشكر للورد كرومر والسردار ولوكيلي فرنسا وبلجيكا السياسيين في مصر وللكبتن اون لانهم كلهم ساعدوه بما سهل عليهِ اختراق افريقية

(مقتطف اكتوبر سنة ١٩٠٨)

الرحالة جورج شوينفورث

George Schweinfurth

نعت الاخبار البرقية من برلين الاستاذ شوينفورث توفي في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٥ بالغاً من العمر ٨٩ سنة وكان واحداً من اوائل المستكشفين في افريقية بين سنتي ١٨٦٣ و١٨٨٨ وقد تخصص في المسائل المتعلقة بالنيل والكونغو ورأس الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٨٧٢ — روتر

الرحالة جورج شوينفورث

هذا نص البرقية التي نعتهُ للعالم وقد اخطأ روتر في تعيين تأسيس الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٢ لان امر التأسيس الذي اصدره المغفور لهُ اسماعيل باشا الخديوي الاسبق تاريخهُ ١٩ مايو سنة ١٨٧٥ وفي المادة الرابعة منهُ تعيين الاستاذ شوينفورث بالاسم رئيساً لها وتاريخ الجمعية الجغرافية عند تأسيسها مرتبط بتاريخ اول رئيس لها والى القراء موجزاً من ترجمة حياته

ولد في ريغا في ٢٩ دسمبر سنة ١٨٣٦ وكان والده تاجراً بها ثم انتقل الى هايدلبرج حيث تربى التربية المدرسية واتم علومهُ العالية في جامعة برلين حيث تخرج دكتوراً في العلوم الطبيعية وكان يميل اليها بكليته منذ نعومة اظفاره واختص بدرس علم النبات وعلم الآثار المتحجرة (الباليتولوجيا) وكان علماء اوربا في ذلك الحين يتبارون في استكشاف مجاهل افريقية فمال اليها وكان احدهم العالم بارنيم

الالماني قد جمع مجموعة نباتات من منطقة النيل الابيض واحضرها معهُ الى برلين وتوفي قبل ان يعين انواعها فعهد الى شوينفورث بالاشتغال في ترتيبها فلم يرَ بدأً من الشخوص الى حيث منابتها ليقف بنفسهِ على اصولها وسير نموها الطبيعي ومن هنا تولد فيهِ الميل الى الاسفار لتطبيق العلم وجاء الى القطر المصري سنة ١٨٦٣ وشرع في جمع مجموعة من نباتات الوجه البحري . وتنقل بين شواطئ البحر والصحراء الشرقية باحثاً منقباً حتى وصل الى بلاد الحبشة وقفل راجعاً الى الخرطوم حيث مكث سنتين ثم عاد الى وطنهِ ، ومعهُ مجموعة اخرى من النباتات وبدأ من ذلك الحين يبحث عن انواع المجموعتين حتى تكاملت معلوماته

كانت هذه رحلتهُ الاولى التي استأنفها في ١٨٦٨ صاعداً من الخرطوم الى بلاد النيام نيام (ازانده) عن طريق النيل وزار قبائل النمبوتوس وكانت مجهولة الى ذلك الحين وكشف في بلاد منغبتو نهر ول في مارس سنة ١٨٧٠ وعرف ان هذا النهر ليس من روافد النيل وذلك قبل ان يثبت انهُ من روافد الكونغو. فشوينفورث كان بعد السر صمويل باكر الثاني الذي تكللت مساعيهِ بالنجاح وزاده تشجيعاً جائزة مالية من همبولدت كان خصصها لينفق منها على تقدم العلوم والاستكشاف وهي التي كان ينفق منها في رحلاتهِ التي استمرت ثلاث سنوات ورجع سنة ١٨٧١ فدوّن اخباره في الكتاب الاول الضخم الذي طبع بالمانيا وعنوانهُ « في قلب افريقية » فتلقتهُ اوربا بالترحاب وترجم الى الفرنسية والانكليزية والايطالية وقرظتهُ الجرائد والمجلات ونشرت صور رحلتهِ كما انهُ ترجم ايضاً الى اللغة التركية وطبع بالاستانة سنة ١٢٩٦ هـ

ولم يكن شوينفورث عالماً نباتياً فحسب بل كان رساماً ماهراً فاخذ المناظر ودوّن ذكرياتهِ برسوم ظهرت في كتابهِ وساعدتهُ على وضع الخرائط في الاقطار التي رادها ووصفها اما في مؤلفاتهِ او مقالاتهِ ومراسلاتهِ الكثيرة في المجلات العلمية

ولما طبقت شهرتهُ الآفاق استلفت انظار الخديوي اسمعيل الى تأسيس الجمعية الجغرافية وبعد عشرين عاماً من تأسيسها له توفى الخديوي الى رحمة الله بالاستانة فنقلت رفاتهُ لتدفن في مسجد الرفاعي بالقاهرة فاقامت الجمعية حفلة تأبين لمؤسسها في ١٥ مارس سنة ١٨٩٥ وكان رئيسها المرحوم الدكتور اباتا باشا فتقدم هذا في الجلسة طالباً من اول رئيس ان يترأسها خصيصاً لهذه الذكرى فافتتحها بخطاب فرنسي جاء في آخره «اني اتمنى امنية واحدة وهي ان الجيل الحاضر يجب عليهِ ان يقيم للخديوي

الاكبر اثراً يليق بهِ في قلب القاهرة يكون باحد ميادينها العمومية في وسط اعمالهِ ومنشآتهِ اعترافاً بفضله الجم رحمة الله عليهِ »

وفي سنة ١٩١١ فكر اعضاء الجمعية المصريون ومريدوه في اقامة حفلة تكريم له وتم ذلك في دسمبر سنة ١٩١٣ وقدموا له « التقليد المسطور على رق منشور » او الشهادة الفخرية مؤرخاً محرم سنة ١٣٣٢ هـ موقعاً عليها من المعجبين بهِ فشكر لابناء مصر فضلهم متمنياً لمصر السعادة وكانت مصر قد قبلت الانضمام الى عضوية مجلس المباحث الدولي سنة ١٩١٨ تحت رعاية الاتحاد الجغرافي الدولي فلم يشترك الالمان والروس والاتراك من دول الاعداء في المؤتمر الجغرافي الذي اقيم في القاهرة في أوائل ابريل سنة ١٩٢٥

ولعل الاستاذ شوينفورث كان اولى الناس بالحضور لسببين الاول انهُ لم يبق غيره حياً من المؤسسين وانهُ الرئيس الاول للجمعية فله الحق في مشاهدة يوبيل غرس يمينهِ وجهوده وكان قد وجه سؤال في المقطم عن حقيقة امتناع القائمين بامور المؤتمر فعلق مستنداً الى ما جاء في الالجمين دينش زيتونج ان الالمان قد يرفضون الحضور اذا دعوا بعد ما جرى مع ان العلم ليس له وطن والعلم فوق السياسة والدين ويقال ان عدم حضور شوينفورث اثر في نفسهِ إذ لمصر كامن الحب في فؤاده وقد اتخذها وطناً ثانياً

وآخر مؤلف ظهر له وهو مقيم في مصر كتاب مفيد عنوانهُ الاسماء العربية للنباتات التي تزرع في مصر واليمن طبع ببرلين سنة ١٩١٢ بالالمانية

وبلغ سن الثمانين سنة ١٩١٦ فاقيمت له حفلة تكريم ببرلين وحصرت آثار قلمهِ في جدول فاذا بها قد بلغت من سنة ١٨٥٨ الى ذلك الحين ٤٢٨ عدًّا ما بين كتاب ومقال ومحاضرة ومراسلة لجريدة او مجلة علمية وهو عدد كبير ومع ذلك استمر في اشغاله العلمية الى وقت وفاتهِ اي بعد تسع سنوات وله اثناءها مآثر معدودة فاعيد طبع كتابهِ « في قلب افريقية » سنة ١٩١٨ في حجم ضخم مصدراً برسمه الذي ننقل عنهُ صورتهُ. وفي سنة ١٩٢٢ جمع بعض مقالاتهِ عن شواطىء البحر الاحمر من مارس لاغسطس سنة ١٨٦٦ وظهر له مؤلف آخر عنوانهُ في الطرق المجهولة بمصر — وقد صدرها بترجمة كتبها بنفسهِ Autobiographie — تشمل الرحلة من الاقصر الى سواكن واستكشافاتهِ وتصعيده جبال القصير ، واقدم الاديرة المسيحية انبا انطونيوس وانبا

بولا واقدم سد للمياه من عهد الاهرام وهو في وادي عزاوى بحلوان ، ومدينة رومانية في الصحراء وقنطرة من حجر في جبل كاوديانوس المعروف الآن بجبل فتيرة من حجر الجرانيت ذي اللون السنجابي ووصف قصر روماني وحمام وكتابات ومقابر قبياتي البابليين والنجا من اسلاف الاحباش والطرق الحديثة الموصلة الى اقدم المعادن واماكنها بمصر وهذا الكتاب محلى بالرسوم مع صورة له لابساً الطربوش سنة ١٨٦٤ واخرى للدكتور كارل كاونزجر بطربوش ايضاً لانهما كانا في خدمة الحكومة المصرية

وفي آخر ١٩٢٤ ظهر كتاب عنوانهُ نباتات الحدائق في مصر (الفرعونية) وهو بحث اثري مصري لمؤلفهِ لودج كابر في اجزاء وقد ساعده الاستاذ شوينفورث في اخراجهِ وكتب لهُ مقدمة مفيدة

توفيق اسكاروس

(مقتطف نوفمبر سنة ١٩٢٥)

٢

قرأت في المقتطف جزء نوفمبر الماضي ترجمة هذا الرحالة الشهير الاستاذ النباتي المحقق جورج شوينفورث الذي توفي في الايام الاخيرة مناهزاً التسعين من العمر

ولما كنت قد عرفت هذا الرجل عرفة شخصية منذ بضع سنوات احببت ان اضم الى هذه الترجمة الكلمات الآتية

سنة ١٩١٨ وهي آخر سني الحرب العامة كنت ببرلين بمأمورية تتعلق بازالة بعض الخلافات بين الدولة العثمانية والدولة الالمانية . فاقمت اشهراً الى ان انتهت الحرب بما انتهت بهِ . وفي اثناء اقامتي ببرلين عرفت اناساً كثيرين من رجال الالمان ولا سيما العلماء والادباء والصحفيين والاخباريين . ومن جملة هؤلاء رجل من يهود المانية اسمهُ « روتايت » كان محرراً في جريدة « الفوسيشتي تسايتونغ » التي صاحبها جورج برنار وهو من معارفي ايضاً. وكان روتايت هذا يتردد الى اخواننا المهاجرين المصريين الذين كانوا هناك الاستاذ العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ عبد الملك حمزة ورفاقهما فتعرفت بهِ عندهم . ودعانا مرة الى الشاي فوجدت في تلك الدعوة رهطاً من اهل الفضل منهم سيدة اديبة المانية قالت لي عند ما قدموني لمعرفتها : أي نعم انا اعرف بلادكم ولي خلطة تامة بعائلة ثريا بك . فقلت لها : وأي ثريا بك ؟ فقالت لي : ثريا بك افلا تعرفهُ ؟ فانهُ من بلادكم . فخطر ببالي مثل « فاطمة في سوق الغزل » وقلت لها : اتدرين لو سألتك قائلاً : الا تعرفين الهرماكس من المانية ؟ فقولك ثريا بك في

المملكة العثمانية كما لو قلنا الهرماكس او الهركوزاد في المانية . وبعد الاستيضاح علمنا انها تريد ثريا بك الارناؤوطي اخا فريد باشا الصدر الاعظم وانها تعرف البانية وتحسب ان البانية وسورية وازمير والاستانة ومصر ومكة وربما الهند وفارس كلها بلاد واحدة بينها من الفروق ما بين برلين ومونيخ مثلا . وجرى معي من هذا القبيل ان كونتاً او على قول العرب كنداً المانياً اقترح علي هدية .تباك من الشرق واخبرني انهُ تعود التدخين بالنارجيلة في بلادنا . فظننت انهُ وجد مرة في طرابلس الشام او في بيروت فقلت له : وفي أي بلدة من بلادنا كنت ؟ قال لي : كنت في الهرسك وهناك تعلمت شرب النارجيلة . مع ان الهرسك هي في الواقع أقرب الى المانية مما هي الى سورية. ولكن الاوربي ايما وجد المسلم عد المكان شرقاً .هذه عقلية القوم استطردت الى ذكرها لانها مما يجب على الشرقيين علمهُ . ونعود الى موضوعنا وهو انني تعرفت عند روتايت بالاستاذ النباتي الكبير شوينفورث ورأيتهُ شيخاً ماجناً لااقدر ان اقول شق مائل او لعاب سائل بالمام ولكنهُ كان يختلج دائماً ويتكلم بنغمة من قد شبع من السنين وكان مع هذا حافظاً قواه العقلية. ومما اتذكره عنهُ انهُ لم يعمل الرحلة في باطن افريقية فحسب بل ساح في بلاد اليمن وحقق هناك نباتات وتعاشيب كانت مجهولة . وقال لي روتايت امامهُ ان تآليفه في النبات مدرسية وانها لاتدرس في المانية فقط بل هي مترجمة الى الانكليزية والافرنسية وغيرهما وانها تدرس في لندن وباريز كما تدرس في المانية . وكان في سكوت الاستاذ شوينفورث على كلام روتايت هذا علامة التصديق . فغبطت هذا الرجل على هذه الشهرة العظيمة وهذا الاخصاء الذي جعل كتبهُ تدرس في بلاد الاجانب الراقية وهو لايزال حياً . وذلك اشبه بالامام الغزالي الذي عند ما جاء الى دمشق واعتكف في صومعة من الجامع الاموي متنكراً كان يمر بحلقات الدروس ويسمع باذنه : قال الامام الغزالي . قال الامام الغزالي . وما احد يعلم انهُ هو الامام الغزالي . انا اقول هذا منتهى السعادة في الدنيا أو على الاقل منتهى سعادة العالم في العالم

***

ومما اتذكره من آثار جلستنا مع البروفسور شوينفورث او شفينفورث انهُ كان يخلع جلباب شيخوختهِ وتأخذه هزة الطرب كالشباب عند ما يتحدث بدخول الالمان الى ريفا . وكان الالمان قد استولوا في ذلك الوقت على بلاد البلطيك كلها ومن جملتها

ريغا مسقط رأس الاستاذ فكان يقول لي : الآن اموت مستريحاً لان ريغا دخلت في حوزة المانية . فكنت اقضي العجب من كون شيخ بلغ هذه الدرجة من السن يطرب هذا الطرب كلهُ كأنهُ شاب ابن ١٦ سنة لاخذ ابناء جلدتهِ البلدة التي ولد فيها . ولكن الوطنية امر عظيم . ولا شيء اعلق بقلب الانسان من حب الارض التي أول ما مس جلده ترابها . ولما زرت موسكو سنة ١٩٢١ ذهبت بحراً الى بلدة « ريڤال » عاصمة « استونية » وركبنا من ريڤال بقطار الحديد الى بتروغراد الى موسكو وقفلت من موسكو براً عن طريق « ليتونية » بالقطار فكنت ارى البلاد روسية الوسم حتى دخلت ريغا وشاهدت ما شاهدت من انتظامها ونظافتها وسعة شوارعها ورونق فنادقها وحسن حدائقها فخلت اني في قلب المانية . ومع ان اهل ريغا ليس اكثرهم من الجنس الالماني فان اللغة الالمانية فيها هي الغالبة وكل شيء هناك مسحتهُ المانية . وعندها تذكرت شغف الاستاذ شوينفورث باندماج ريغا في الوحدة الجرمانية

على اني احسب عمر الاستاذ المشار اليه اكثر مما ورد في الجرائد فان كانت لم تخني ذاكرتي اقول ان الذي سمعتهُ من روتايت عن عمره كان ٨٦ او ٨٧ سنة وهذا سنة ١٩١٨ فيكون عمره يوم ذهب الى ربهِ ٩٣ سنة بالاقل . ولو لم يكن كذلك لما كان سكت على قول روتايت عن عمره وكان بادر الى تصحيحهِ او كان قال لهُ : بالغت . نعم ان الرجال اسمح في هذا الموضوع من النساء وبعض السيدات يضمرن اشد الحقد لمن يقول الحقيقة عن عمرهن فضلا عمن يزيد فيهِ ،شاهدت سيدة في احدى مدن سويسرا اغرت الحكومة بسيدة أخرى وكانت سبب طردها من تلك المدينة فسألتها : ما سبب تلك العداوة ؟ فقالت لي وصلت الامور معها الى ان زعمت ان عمري ٤٠ سنة مع ان عمري ٢٨ . فلا شك ان الرجال ايضاً لا يريدون ان يعدوا شيوخاً فانين ولا يوجد احد يحب ان يزاد في عمره او اذا زيد لهُ فيهِ سكت عن الاعتراض . وحسبك ان سيدنا احمد بن حنبل رضي الله عنهُ سئل فيما اتذكر عن عمره فظهر الامتعاض في وجههِ وقال للسائل : لاتسأل عما لا يعنيك

نعم انا كنت اعتقد ان الاستاذ شوينفورث مناهز الرابعة والتسعين وهيئتهُ يوم شاهدتهُ واختلاج شفتيهِ واضطراب جسمهِ وعدم تبين جميع الفاظهِ كل ذلك كان يخبر عن التسعين او ما قاربها لكنني علمت بعد ذلك انهُ لم يتجاوز التاسعة والثمانين

مقتطف يناير سنة ١٩٢٦ — شكيب ارسلان

٣

استطراد

(المقتطف) نشكر الامير الجليل على ما اتحف المقتطف بهِ . وبعد فقد ذكرت مجلة ناتشر شوينفورث في السابع من نوفمبر فقالت ما ترجمتهُ

جورج اوغسط شوينفورث ولد في ريغا من والدين المانيين في ٢٩ دسمبر سنة ١٨٣٦ وتوفي في برلين في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٥ وقد كان من علماء الطبيعة الذين امتازوا برحلاتهم ومستكشفاتهم فى الجانب الشرقي من اواسط افريقيـة . نشأ نباتياً مدرباً فاختير وهو في السابعة والعشرين من عمره لـكي يرتب مجاميع النباتات التي احضرها بارثم وهرتمن من السودان . واقام من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٦٦ يبحث فى نباتات مصر والبلاد المجاورة لها من الاسكندرية الى الخرطوم واسناد البحر الاحمر ومن جبال الحبشة من البحر الازرق ثم الى بحر الغزال . وهذه الرحلة التي دامت ثلاث سنوات كانت اكثر الرحلات الافريقية ثمرة . فقد كان غرضهُ الاول فيها البحث فى نباتات البلاد لـكنهُ لم يقتصر على ذلك بل بحث ايضاً في حيواناتها وجبالها واوضح ما يتعلق بانهارها مما كان امره غامضاً فانهُ عبر النيل واتجه غرباً فكشف نهر ول[1] وحسب انهُ يصب فى بحيرة شاد ونال باكتشافهِ هذا وسام مؤسس الجمعية الجغرافية الملـكية ببلاد الانكليز . ودرس احوال السكان وهو أول من وصف قبائل الدوير والدنكا والبنجو والازندا او النيام نيام آكلي لحوم البشر وقد كشف ايضاً اقزام الاكا ، فاثبت وجود الاقزام في قلب افريقية بعد ان كان وجودهم في معرض الشك

اما في علم الحيوان فاهم ما كشفهُ نوع متنقل من الشمبانزي كشفهُ في بلاد الازندا ووجود الشمبانزي في وادي النيل لم يكن معروفاً هناك . وكشف ايضاً البيغاء الرمادي وغيره في تلك الجهات . اما في علم النبات فكان عمله واسع النطاق فانهُ كشف ان الحراج الكبيرة التي في قلب افريقية تمتد شرقاً ووصف انتساق اشجارها وصفاً شعرياً وشبهها بالاعمدة في الهياكل المصرية ونشر ذلك في كتاب سماه قلب افريقية، طبع اولاً سنة ١٨٧٣ مزداناً بكثير من الصور التي رسمها بيده لانهُ كان رساماً ماهراً كما كان كاتباً

---

(١) نهر كبير في قلب افريقية يخرج من بلاد المنبتو ويجري غرباً الى الدرجة ١٩ من الطول الشرقي يميل جنوباً ويصب في نهر الكونغو وقد ظن شوينفورث لما كشفه انه يتصل بنهر شاري ويصب في بحيرة شاد فأخطأ في ظنه

بليغاً فوق ما اشتهر بهِ من شدة الانتباه والملاحظة . واذا اعتبرنا ما في هذا الكتاب من بلاغة الانشاء والاستيعاب في وصف البلاد وسكانها وما فيها من نبات وحيوان واضفنا الى ذلك ان الزمن الذي كان فيهِ كانت النخاسة في اوجها وتطلب العاج على اشده فوجدنا كتابهُ « قلب افريقية » قلما فاقهُ كتاب آخر من كتب روّاد افريقية

بعد ذلك لم يعد الى قلب افريقية بل رحل رحلات اخرى الى جهات اخرى فمن سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٧٤ كان في صحراء ليبيا مع رولفس وبين سنة ١٨٧٦ و١٨٨٨ ذهب مراراً الى الجنوب الغربي من جزيرة العرب وكان في غضون ذلك يقيم في القاهرة واسس فيها الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ تحت رعاية الخديوي اسمعيل وكان يبحث في نبات الجانب الاسفل من وادي النيل وجيولوجيتهِ . وسنة ١٨٨٦ جعل اقامتهُ في برلين ولم يغادرها الا حينما كان يذهب الى ارتريا بين سنة ١٨٩١ و١٨٩٤ . وطبع طبعة جديدة من كتابهِ في قلب افريقية سنة ١٩١٨ بعد ان اضاف اليهِ اضافات كثيرة . ومجموعتاه النباتية والجيولوجية معروضتان الآن في متحف برلين انتهى

***

اما نحن فقد لقينا شوينفورث مرة في بيت الدكتور غرانت بك بالقاهرة وكانت مسألة وادي الريان وجعله خزاناً شاغلة الافكار وكان كوب هويتهوس يحاول اقناعنا بصحة مشروعهِ حتى يؤيده المقطم والمهندس برون من وزارة الاشغال يحاول اقناعنا بفساده فسألنا شوينفورث عن رأيه في ذلك من باب جيولوجي فقال انهُ لا يشير بجعل وادي الريان خزاناً لانهُ يحتمل ان تكون في الحاجز الذي بينهُ وبين الفيوم شقوق او نقط ضعيفة فاذا زاد ضغط الماء في الوادي تحلب الى الفيوم واغرقها . ومنذ عهد قريب كنا نكلم سري باشا وزير الاشغال في هذا الموضوع فرأيناه يرى ما رآه شوينفورث . اما نحن فبلغنا ان كوب هويتهوس والسر وليم ولككس يقولان ان في وادي الريان آثار زراعة فاذا كان الامر كذلك فالماء كان فيهِ ولم يغرق الفيوم حينئذ فجعله خزاناً اسلم عاقبة من جعل الخزانات في اعالي النيل ومفتاحها ليس في يد مصر . والذي فهمناه من سري باشا انهُ يحسب الفاصل الذي بين وادي الريان والفيوم غير كاف لمقاومة ضغط الماء اذا ملي وادي الريان وهذا لم يقل بهِ شوينفورث ولا السر وليم ولككس ولذلك فالمسألة تستحق البحث ثانية حتى اذا وجدت آثار زراعة في وادي الريان كما قال كوب هويتهوس انتفى كل محذور .

مقتطف يناير سنة ١٩٢٦

رحلة مسز فوربس الى كفرة

حاول الفيلسوف افلاطون ان يؤجل الكلام على مقام المرأة في الهيئة الاجتماعية خوفاً من ان يكون رأيهُ فيها سبباً لسخط الرأي العام عليهِ . لكن تلميذه كاوكن اصرَّ على مناقشتهِ في موضوع المرأة الاجتماعي فكانت النتيجة ان افلاطون قال بعد الجدال الطويل قولهُ المشهور الذي لا تطمع المرأة بمثلهِ في هذا العصر حتى من اشد الناس غيرةً عليها وتحمساً في الدفاع عن حقوقها . فقد قال بلسان استاذه سقراط « ليس من عمل ما في نظام الهيئة الاجتماعية تختص بهِ المرأة كامرأة او يختص بهِ الرجل كرجل لان الطبيعة ساوت بين الرجل والمرأة فيما منحتهما من النعم والمواهب ولذلك يحق للمرأة ان تقوم بكل عمل يقوم بهِ الرجل » وكأنهُ خشي ان يؤخذ عليهِ اطلاقهُ هذا فاستدرك قائلاً « رغم كون المرأة اضعف جسماً من الرجل »

لكن امرأة القرن العشرين قد ابطلت استدراك افلاطون هذا بما تظهرهُ من الهمة والبأس اللذين لا تتحملهما الا اشد الاجسام قوةً وصلابةً . فالنساء في اليابان اخذن يحتكرن الغوص في اعماق البحار لاستخراج صدف اللؤلوء . وبما هذا الا أحد الشواهد على المقام الذي اخذت المرأة تحتلهُ في الهيئة الاجتماعية ناقضة نسبة الضعف اليها ، معلنةً باعمالها انهُ قد حان الوقت لنقول مع افلاطون «يحق للمرأة ان تقوم بكل عمل يقوم بهِ الرجل »

***

في لندن اليوم سيدة نالت من الشهرة على حداثة سنها مقاماً في نفوس مواطنيها لم تنلهُ سيدة اخرى في عمرها ولا في نوع العمل الذي قامت بهِ . هذه السيدة هي روزيتا فوربس التي زارت القاهرة منذ عهد قريب ويعرفها كثيرون من قراء المقتطف فقد صحت عزيمتها على التوغل في مجاهل افريقية التي لم يصلها رجل ابيض قبلها . فقامت بما انتدبت لهُ خير قيام واخترقت صحراء ليبيا ووصلت الى كفرة وعادت الى قومها بما رأت ودرست وعرفت من مواقع البلاد الجغرافي وحالها الاقتصادي وعادات سكانها وتقاليدهم . فاكبرت انكلترا شجاعتها واقدامها وامتلأت اعمدة الجرائد والمجلات بحديث رحلتها ونالت حظوة الاجتماع الخصوصي بجلالة الملك والملكة فاطلعتهما على

خلاصة رحلتها وما اكتشفتهُ وما رسمتهُ من الخرائط وصوّرتهُ من صور البلاد وسكانها مما جعلها في المقام الارفع بين سيدات القرن العشرين

مسز فوربس هذه في عنفوان صباها وهي على جانب عظيم من الذكاء والجمال الذي قد يستهوي اعقل النساء للانصراف الى عيشة الراحة والكسل والسكون في عاصمة كبيرة كمدينة لندن حيث يحيط بها اناس يكرمونها ويجلونها . لكنها تركت قلب لندن لتضرب في قلب افريقية . وزد على ذلك انها كاتبة من الطراز الاول ، وقد اشتهرت بما كتبتهُ في مباحث مختلفة وبما نشرتهُ اخيراً في جريدة التيمس وفي الالستريتد لندن نيوز

ان كاتب هذه السطور عرف هذه السيدة ورافقها في رحلة رحلتها في صحراء تدمر في العام الماضي فرأى من شجاعتها ونشاطها وعلو همتها ما يستحيل ان ينسب الى المرأة ان لم تكن مساوية للرجل في جميع القوى . وقد رأى ان ذكاءها الفطري شبيه بذكاء الشرقيات فانها تجيد الانشاء والالقاء بالافرنسية والالمانية والايطالية والاسبانيولية كما تجيد لغتها الانكليزية وتتكلم العربية ايضاً . وقد قلت لها يوماً ان ذكاءها شرقي اكثر منهُ غربي فاجابتني على الفور « ان امي اسبانية وقد يتصل نسبها باحد امراء العرب الذين كانوا في الاندلس » وقصت عليّ في زيارتها الاخيرة لمصر حديث رحلتها الى كفرة وما قاست من المشاق فرأيت ان الخصهُ لقراء المقتطف بما يأتي

في اواخر اكتوبر الماضي قامت من لندن الى بنغازي وفي العشرين من نوفمبر ودعت بنغازي وسارت بمن معها الى جدابيا وهي على مسافة اسبوع من بنغازي فاستراحت فيها من وعثاء السفر الى ان نشطت الى رحلة طويلة في قفر بلقع فقامت بقافلتها وسارت عشرة ايام متوالية الى ان وصلت الى اوجلة . وتأخر بعض قافلتها في الطريق فانتظرت هناك هنيهة الى ان وصلت القافلة كلها فتابعت السير من اوجلة الى جالو ومن جالو الى بئر ابي الطفل وهناك آخر مكان في الصحراء يجد فيهِ الانسان ماء

وكان امامها بين ابي الطفل وكفرة مسافة اثني عشرة يوماً لا يجد فيها السائر ماء ولا اثراً من آثار الانسان بل رمال عفراء قضي عليها ان تقاسي فيها اشد المشاق والاهوال

تأهبت قافلتها للسير من ابي الطفل وحملت ما تستطيع حملهُ من الماء وسارت هي في مقدمتها ووجهتها واحة تساربو فتاهت القافلة في الصحراء وسدّت في وجهها سبل النجاة

للصحراء ادواء خاصة بها منها ان الدليل اذا تاه اعتراهُ الذهول واستولى عليهِ اليأس . وقد قالت لي مسز فوربس ان هذا الداء ينتشر في الصحراء كما تنتشر الانفلونزا في انكلترا والملاريا في الشرق . فاذا اصاب الدليل ارتمى على الارض وجعل يصيح « دماغي طاحت » يريد بذلك ان يقول لصاحب القافلة انني ضللت الطريق وتعذر عليَّ وجوده فلم يبق لك الا ان تسير بقافلتك كيف شئت وكانت مسز فوربس تتبع الدليل وهو يوغل في الصحراء الى ان وقف امامها وانطرح على الارض وجعل يصيح قائلاً « دماغي طاحت ، دماغي طاحت » . ولو اكتفى بما اصابهُ لهان الامر لكنهُ خيل اليهِ ان ضلالهُ في الصحراء عار عليهِ فعن له ان يسير بالقافلة على غير هدًى الى ان تهلك ويختفي اثرها فلا يبقى منها من يخبر بما فعل

وضاقت الحيل بمسز فوربس فرأت ان تتكل على نفسها فاتجهت شرقاً معتمدة في معرفة الجهة على الابرة المغنطيسية فقادها الحظ بعد عناء كثير وجهد جهيد الى بئر مطوية لا ماء فيها تدعى بئر العطش وهي بئر قديمة تراكمت عليها الرمال فطمرتها . ثم تابعت سيرها شرقاً وقد اخذ التعب منها كل مأخذ ونفد الماء الذي معها رغم التقتير الشديد في شربهِ واكلت الهوام جسمها . وبينما هي تفكر فيما يحل بها وبالذين معها اذا لم يجدوا ماء يروي عطشهم اذا برجال القافلة يصيحون مولولين ان علف الجمال نفد كلهُ . والجمل اذا استطاع السير في الصحراء بلا ماء لا يستطيعهُ جائعاً . فرأت ان الوسيلة الوحيدة لاطعام الجمال ان تنزع رحالها وتخرج ما فيها من القش والتبن وتطعمها اياه ففعلت . وقويت الجمال على متابعة السير نوعاً . ومرت ثلاثة ايام والماء يقل والعطش يزيد الى ان كادت حبال الامل تنقطع وحينئذ اوصلها القدر الى بئر الحراش وفيها ماء فسرّي عنها ونزلت القافلة هناك واستراحت وفتح الله على الدليل فتذكر الطريق وشفي من داء الصحراء . وكانت جبال واحة بوزيما قد لاحت في الافق فاخذت القافلة ما تستطيع حملهُ من الماء وسارت مسز فوربس والدليل امامها ووجهتها واحة بوزيما فبلغتها بعد مسيرة يومين لكن السكان قابلوها بالعداء اولاً فرأت ان

تأخذهم بالمعروف واولمت لهم وليمة فكسرت من حدتهم وسمحوا لها ان تجول في واحتهم فاكتشفت قلاعاً ومعاقل قديمة بناها برابرة التابو من سكان البلاد الاصليين . والسكان هناك يلبسون جلود الحيوانات وطعامهم التمر والجراد ونساؤهم يعلقن حجارة صغيرة في انوفهن بدل الخزامة واذا مات الواحد منهم دفن في بيته

ثم سارت بقافلتها من واحة بوزيما الى واحة الهواري ومات في الطريق اربعة من جمالها من شدة التعب والعطش . وشاهدت في طريقها كثيراً من العظام البشرية واجسام اناس ضلوا الطريق فماتوا من العطش وبقيت اجسامهم حيث وقعت

ولما وصلت الى واحة الهواري وجدت ان اهلها بدو من قبيلة الزوي فاجتمع مشايخها واجمعوا على منعها من دخول بلادهم لانهم يكرهون الاجانب مسيحيين كانوا او مسلمين ولم يكتفوا بذلك بل قبضوا عليها وعلى من معها ولم يخلوا سبيلهم الا بعد ان ارسلت رسولاً الى حاكم كفرة فجاء الامر منهُ باطلاقهم مع انهُ كان معها كتاب من السيد السنوسي يأمر فيه ان تكرم وتحترم حيث حلت وان يكون جميع ما تنفقهُ على حسابه

وسارت من واحة الهواري الى ان وصلت الى مدينة التاج وفيها قبة المهدي والد السيد السنوسي الحالي . والتاج كعبة السنوسيين وفيها اهم زواياهم وهي في واحة كفرة وعلى مقربة من مدينة كفرة نفسها فاقامت فيها سبعة ايام

وسكان كفرة الاصليون زنوج من قبيلة التبويين القدماء وقد غزاهم عرب الزوي من الشمال فاستولوا على بلادهم. وكانت مسز فوربس وهي هناك تزور السكان في بيوتهم ورأت انهُ يصيبهم نوع من الحمى فكانت تداويهم بما معها من الكينا . وشاع بين نساء كفرة انها تشفي ايضاً من داء العقم فهافتن عليها ولم تستطع ان تصرفهن عن اعتقادهن هذا فجعلت تعطيهن ما معها من اقراص اللبن المعقم دواء للعقم

وعادت من كفرة في طريق بئر الذكر ومنها الى جغبوب مسافة اثنى عشرة يوماً في قفر لاماء فيه . ومن جغبوب الى واحة سيوى ومنها الى الاسكندرية فالقاهرة حيث اقامت بضعة اسابيع قابلت فيها كثيرين من رجال الحكومة والاعيان وفي التاسع عشر من ابريل ابحرت الى انكلترا حيث قوبلت باحتفاء لامثيل له

وقد بلغت المسافة التي قطعتها في ذهابها الى كفرة خمسماية ميل منها ٥٠٠ كيلو متر في قفر لاماء فيه واثبتت برحلتها هذه الامور الآتية وهي : —

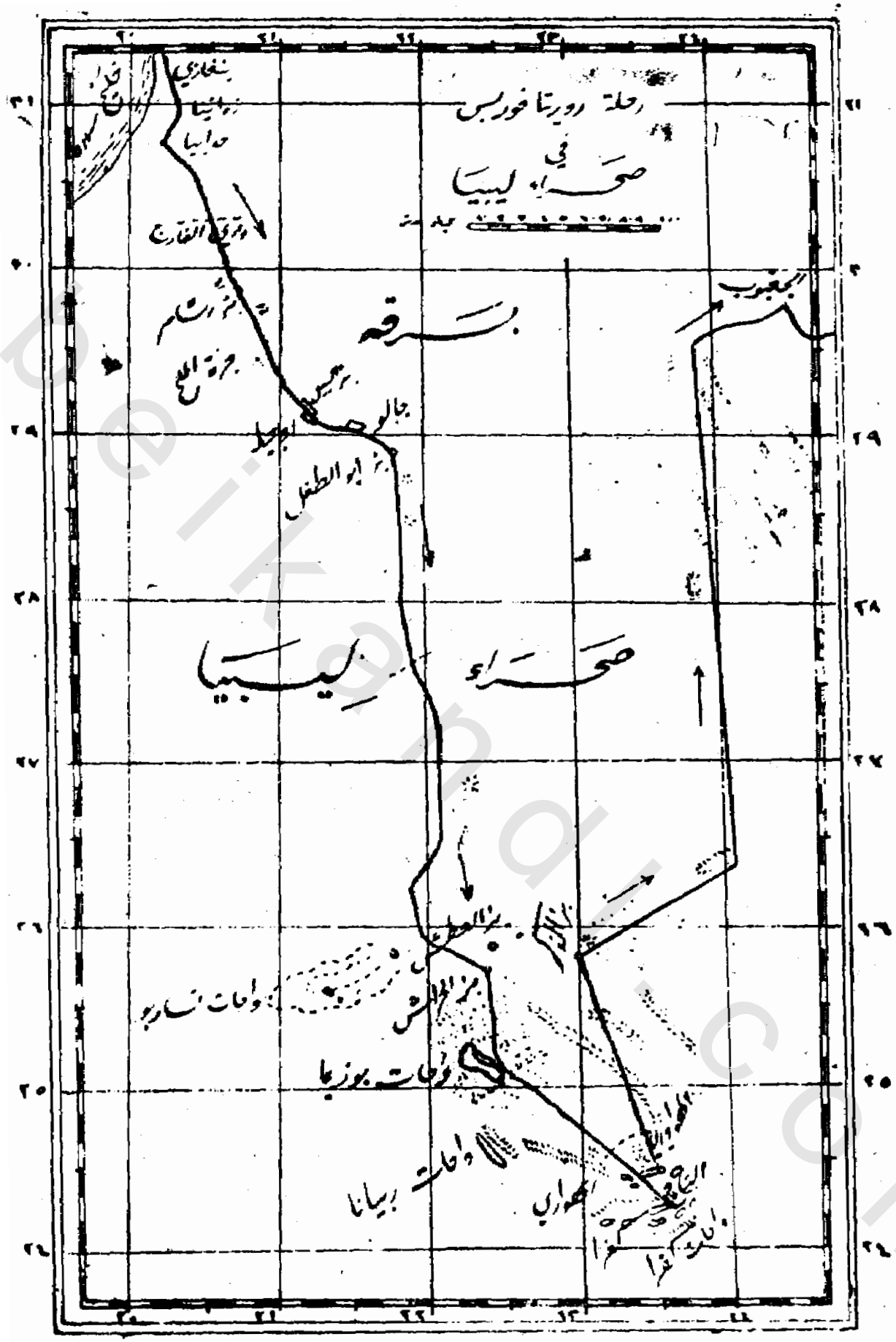

رحلة مسز فوربس الى الكفرة

الرواد صفحة ١٥٤

حسنين بك على جواده العربي بركة ورجل القافلة مسلحون

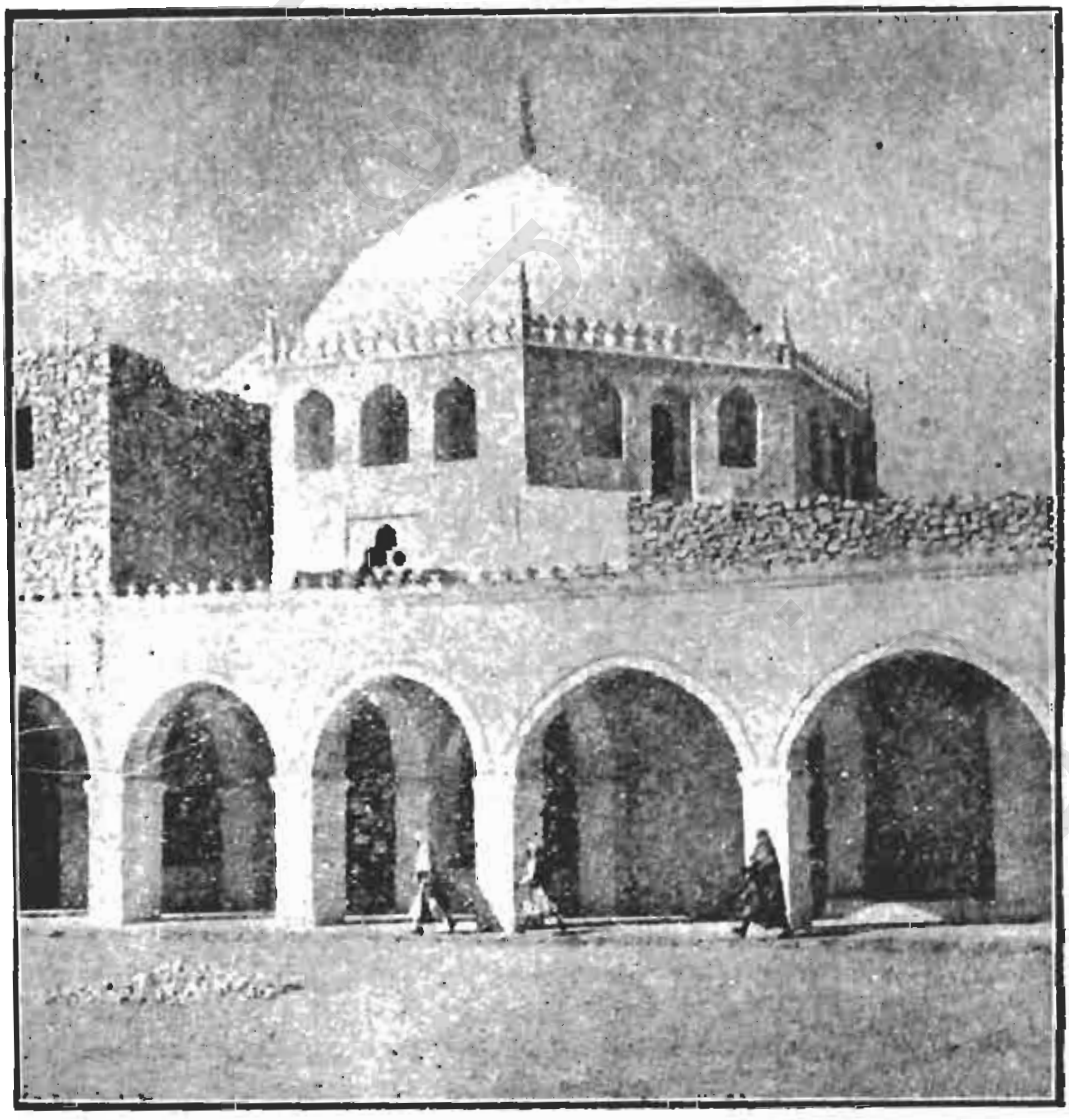

قبة الجامع في واح الجغبوب تثوي تحتها رفات السنوسي الكبير

اولاً — ان واحة كفرة واقعة الى الجنوب الشرقي من المكان الذي ترسم فيه في الخرائط المعروفة

ثانياً — ان واحات ريبانا الى الجنوب من واحة بوزيما وكان اهل الجغرافية يحسبونها الى الجنوب الشرقي

ثالثاً — انها اكتشفت الآبار العديدة بين جالو وبوزيما وحددت مواقعها حتى لايضل المسافر الى كفرة بعد الآن

رابعاً — اصلحت اغلاط الرحالة رولفس الالماني وهو الاوربي الوحيد الذي وصل الى كفرة وذلك منذ اربعين سنة

خامساً — اكتشفت طريقاً جديداً من كفرة الى جغبوب

ومتى نشرت مسز فوربس تفصيل رحلتها اعود الى تفصيل ما اجملتهُ هنا نقلاً عنها

والعالم المتمدين يأبى ان يرى امامهُ اماكن مجهولة وشعوباً لايعرف عنها شيئاً فهو يبحث وينقب ويتجشم المشاق والمخاطر لكي يكتشف المجاهل ويعلم المجهولات.

توفيق مفرّج مقتطف يوليو سنة ١٩٢١

٢

اطلعنا على مقالة في هذا الموضوع في مجلة ناتشر العلمية بقلم ارثر سلفا هويت وصف فيها الرحلة من باب علمي قال ما خلاصتها

ان رحلة مسز روزيتا فوربس الى واحة كفرة في قلب صحراء ليبيا كشفت القناع عن امور كنا نجهلها وجاءتنا باخبار عن مكان في تلك الصحراء لم يصل اليهِ احد من اهل الرحلات بعد ان قصده جرارد رولفس سنة ١٨٧٩

فان رولفس هذا حاول مرتين الوصول الى كفرة ففي النوبة الاولى اضطر ان يرتد على عقبهِ من اوجيلة وجالو مع انهُ كان ذاهباً بفرمان عالٍ من السلطان عبد الحميد، لان النخاسين (الجلابة) رفضوا ان يعطوه دليلاً الا بامر من السنوسي. وفي النوبة الثانية وصل الى كفرة ولكنهُ أسر هناك ولم ينج الا بشق النفس. ومرت اربعون سنة ولم يستطع اوروبي ان يفعل ما عجز عنهُ هذا الرجل الى ان قامت مسز فوربس فوصلت الى كفرة وعادت منها سليمة مكرمة. ومن اسباب نجاحها تغير

الاحوال السياسية من ايام رولفس الى الآن لاسيما وان مسز فوربس دخلت صحراء افريقية وقتما تم الاتفاق بين ايطاليا والسيد السنوسي رئيس الطريقة السنوسية

قامت من بنغازي مع بعض الرفاق وسارت جنوباً ثمانين ميلاً الى جدابيا حيث ابتدأ السير في الصحراء فعلاً ونزلت هناك على السيد رضا اخي السيد ادريس شيخ الطريقة السنوسية ولكن فتن عليها بعض الذين اساؤوا الظن بها فاضطرت ان تلبس ثياب بدوية وتهرب ليلاً من غير دليل هي واحد الرفاق ثم تبعهما رجلان امينان من السنوسيين وسار الاربعة يومين في الصحراء الى ان التقوا بجنديين من السودانيين فصاروا ستة وكادوا يموتون جوعاً لو لم يلتقوا بقافلة ساروا معها مرحلة بعد مرحلة الى ان وصلوا الى واحة اوجيلة . وكان السيد رضا قد اتبعها بقافلة تعني بامرها وارسل معها كتاباً الى قائمقام جالو يوصيه بها فصاروا معها تسعة خدم من الزنوج وجاريتان ودليل وثلاثة من البدو و١٨ جملاً ولكن هذه الجمال لا تكفي لركب مثل هذا في تلك الصحراء لاسيما وانها لم تكن في حالة صالحة للضرب في القفار ولذلك لاقى هذا الركب اشد المشاق وزادت مشاقهم لان دليلهم ضل الطريق فتأخروا واقتضى لهم تسعة ايام حتى وصلوا الى بئر الحراش حيث وجدوا ماء ثم يومان حتى وصلوا الى بوزيما فاقاموا فيها ثلاث ليال ليستريحوا من وعثاء السفر وقضوا اربعة ايام يمرون بين كثبان الرمال الى ان وصلوا الى واحة هواري في ضواحي واحة كفرة

والظاهر ان السنوسيين الآن فريقان مختلفان الاول انصار السيد احمد السنوسي الذي كان له الشأن في الحملة على مصر والثاني انصار السيد ادريس الشيخ الحالي . والفريق الاول يسيء الظن بالفريق الثاني ويعمل على مقاومة مريديه ولذلك كانت مسز فوربس ورفاقها في خطر دائم من رجال الفريق الاول

فلما وصلت الى التاج مقام السيد السنوسي فحص قائمقام الكفرة السيد صالح البسكري جوازاتها وجوازات رفاقها واحسن ملتقاهم وانزل مسز فوربس في دار السيد ادريس فاقامت فيها تسعة ايام متحجبة كامرأة عربية وزارت قبة السيد المهدي ابن مؤسس الطريقة السنوسية وخليفته . ولم يرق ما فعلته في عيون خمسة عشر من شيوخ القبائل هناك لان نساء العرب عامة ونساء التاج خاصة لم يعتدن الخروج من منازلهن والجولان كما كانت مسز فوربس تفعل لكن القائمقام حماها منهم فجالت في البلاد المجاورة وشاهدت ما فيها

ولما حان ميعاد رجوعها ارادت ان ترجع بطريق آخر غير الطريق الذي ذهبت فيهِ لعلها تكتشف طريقاً يسهل مرور التجار فيهِ بين مصر وتلك الانحاء . ثم اتضح لها ان الطريق الذي سارت فيهِ في رجوعها هو من الطرق التي فتحها السيد السنوسي وكان اتباعهُ يسيرون فيها فيجدون في آخر كل مرحلة مكاناً ينزلونهُ وماءً يشربونهُ فبعثت امامها بعض رفاقها في طريق جالو وجدابيا وبقي معها اربعة رجال وتسعة جمال فوصلوا بعد اربعة ايام الى بئر الذكر وكانت قد اهملت منذ اربع سنوات فردمت فاضطروا ان يحتفروها ثانية ثم ساروا اثني عشر يوماً في قفر بلقع لم يجدوا فيهِ ماء الى ان وصلوا الى الجغبوب وكانوا يسيرون ١٣ ساعة كل يوم يقطعون فيها ٣٠ ميلاً . ولما وصلوا الى الجغبوب أنزلت مسز فوربس في زاويتها في بيت الاخوان وفي ١٣ فبراير قامت من هناك قاصدة واحة سيوى . وجاءت من سيوى الى الاسكندرية باتوموبيل . .

مقتطف يوليو سنة ١٩٢١

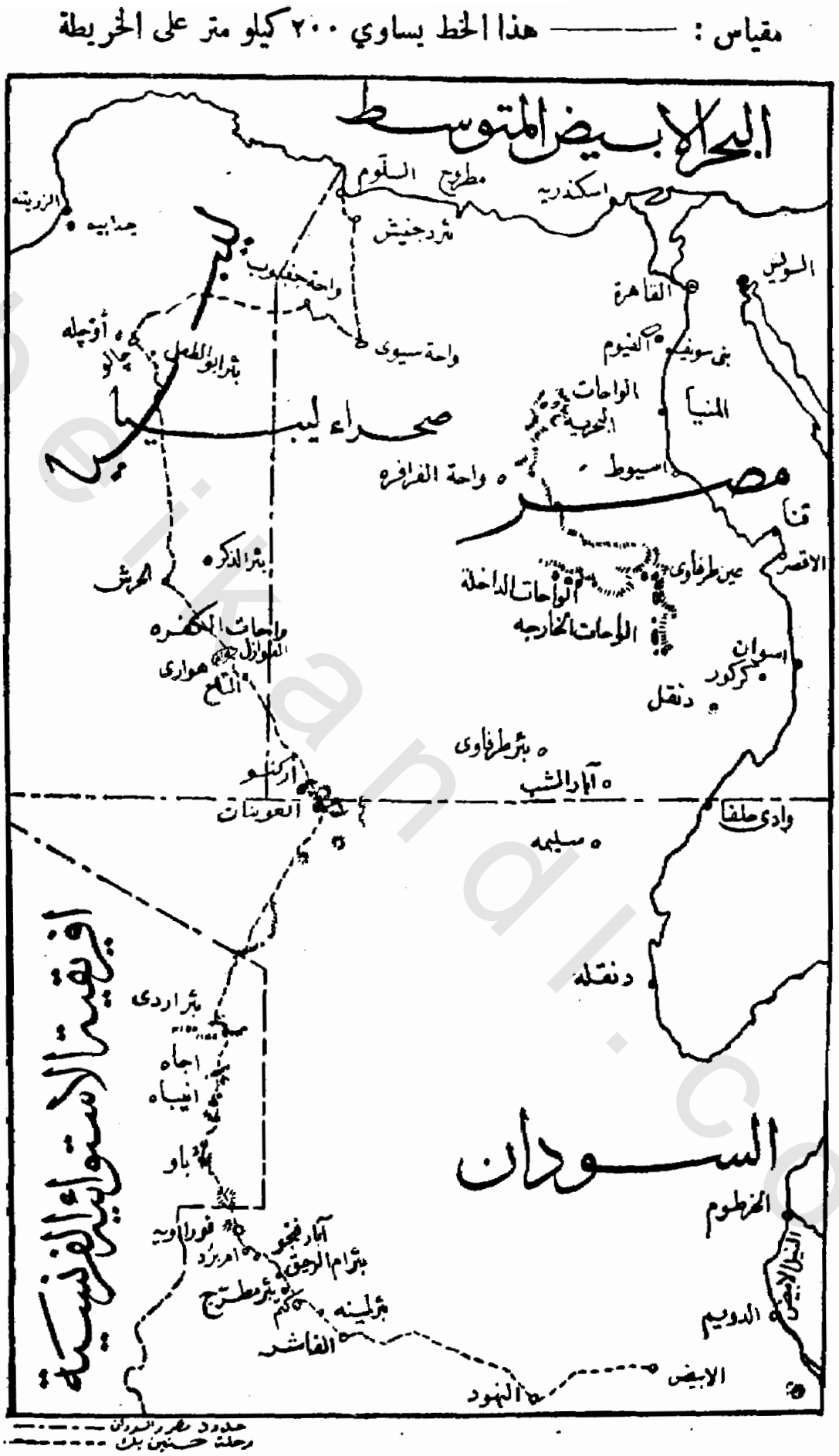

خريطة رحلة حسنين بك من السلّوم الى الابيّض

اول رائد مصري حديث

الرحالة احمد حسنين بك

[قرأنا المقالة التي نشرتها المجلة الجغرافية الوطنية (الاميركية) من قلم الرائد المصري الهمام احمد حسنين بك والخطبة النفيسة التي تلاها في الجمعية الجغرافية الملكية ببلاد الانكليز ونشرت في اعمالها فترجمنا منها الملخص التالي وابقينا الكلام فيه بصيغة المتكلم والحقنا به خلاصة ما كتبتهُ المجلتان في هذا الصدد]

ان رحلاتي التي قطعت بها صحراء ليبيا من السلّوم على شاطىء البحر المتوسط الى الابيض قاعدة كردفان بالسودان (انظر الخريطة) رحلتها في النصف الاول من سنة ١٩٢٣ . وقد بدا فيّ الشوق الى هذه الرحلة سنة ١٩١٦ فان الكولونل تلبت وكان ضابطاً ممتازاً في الجيش المصري وقد استقال منهُ عاد الى الخدمة حالما استعرت نار الحرب العالمية فذهبت معهُ موفداً الى السيد ادريس السنوسي في الزويتنة . وكان من اغراض هذه البعثة الاتفاق معهُ كزعيم للسنوسية على منع البدو من مهاجمة تخوم مصر الغربية وكنت قد تعرفت بهِ في مصر وهو راجع من الحج سنة ١٩١٥ لانهُ كان صديقاً لأبي . فاخبرتهُ حينئذ عن رغبتي في زيارة الكفرة التي لم يصل اليها من الاجانب الا رجل واحد وهو الرحالة الالماني رولفس وذلك سنة ١٨٧٩ . فابدى سروره من رغبتي هذه وطلب مني ان اخبره حينما انوي الرحلة ووعدني بكل مساعدة . ثم زرتهُ ثانية سنة ١٩١٧ وقلت له انني لا ازال مصمماً على الذهاب الى الكفرة وسأفعل حالما تضع الحرب اوزارها . فزاد في ترغيبي وكرر وعده لي وكان معي حينئذ المستر فرنسيس رود وهو من اصدقائي الذين صادقتهم في كلية بليول بجامعة اكسفورد فبحثنا في امر الرحلة واتفقنا على ان نقوم بها كلانا

ولما انقضت الحرب اتتني مسز روزيتا فوربس (وهي الآن مسز مكغراث) بكتاب من المستر رود طالبةً ان ترافقنا في تلك الرحلة . فجعلنا نرسم خطة سفرنا ولكن لما حان وقت السفر حدث ما منع المستر رود من مرافقتنا فرحلنا انا ومسز فوربس وحدنا . قمنا من جدابيه في نوفمبر سنة ١٩٢٠ ومعنا قافلة اعدها لنا السيد

ادريس وبلغنا الكفرة في ١٤ يناير سنة ١٩٢١ . ثم رجعنا الى الجغبوب مارين ببئر الذكر ومنها الى واحة سيوه فالاسكندرية

ورحلتي هذه الى الكفرة زادت رغبتي في الارتحال فانني رأيت حينئذ ان وراء الكفرة قفراً مترامياً لم تطأه رجل مستكشف وبلغتني اخبار عن واحات مجهولة لا يعلم عنها شيء الا بالاحاديث المتسلسلة . واحات مجهولة هذا مما يشحذ الهمم ويزيد الشوق الى ارتياد المجاهل !

فرجعت الى مصر عازماً على العودة وان لا اقنع بالوصول الى الكفرة بل احث الركاب الى ما ورائها حتى ابلغ بلاد السودان واعود من هنالك بطريق الخرطوم . وهناك امر آخر زاد رغبتي في السفر وهو اننا في الرحلة الاولى لم يكن معنا من الآلات العلمية الا بارومتر انرويد وبوصلة مضبوطة وذلك لم يكن في الامكان الوصول الى ارصاد علمية وغاية ما وصلنا اليه معلومات عن الطريق دونتها بما كان لديّ من الوسائل الضئيلة ولذلك عزمت ان اتجهز في الرحلة التالية بما يلزم من الآلات لمسح البلاد التي نمر فيها لعلي اتمكن من ان اضيف شيئاً الى ما يعرف عن صحراء ليبيا جغرافياً وطبوغرافياً

فرسمت الخطة التي كنت عازماً على اتباعها ورفعتها الى جلالة مولاي الملك فؤاد الاول فقابل جلالته مشروعي بالاستحسان والتنشيط التام وامر ان اعطى اجازة طويلة . ولولا تعطفهُ وتشجيعهُ لما تكلل مشروعي بالنجاح الذي تكلل بهِ

بلغت السلوم في الحادي والعشرين من دسمبر سنة ١٩٢٢ وقبلتي الجغبوب مقام السنوسية العلمي ومدفن السنوسي الكبير وهي على ١٣٠ ميلاً من السلوم جنوباً . وقبلما غادرت السلوم بلغني ان الجمالة الذين استأجرتهم ليذهبوا معي الى الجغبوب اتفقوا على نهب ما معي في الطريق فغيرت خطة سفري واستأجرت جمالة آخرين ليذهبوا معي الى سيوه ناوياً ان اذهب الى الجغبوب منها . وقامت قافلتي من السلوم في الثاني من يناير سنة ١٩٢٣ ولحقت بها بعد يومين . ومن السلوم الى سيوه تسعة ايام وكنت اهتم في اثناء الطريق بتغطية الصناديق التي فيها الآلات العلمية حتى تظهر كأنها من الامتعة العادية التي يحملها البدو في رحلاتهم . ورأيت في اليوم الخامس ظبياً يرعى على مقربة من الطريق فقصدتهُ وللحال سمعت ضجة من رجالي كأنهم ينهونني عن اللحاق بهِ فلم افهم ما غرضهم من ذلك لا سيما واني اعلم شدة قربهم الى اللحم وحسبت انهم خافوا ان

اضل الطريق . وبعد قليل تمكنت من اطلاق بندقيتي على الظبي فوقع صريعاً فحملتهُ وعدت بهِ الى القافلة فاسرع الجمالة الى لقائي فرحين متهللين . ثم علمت ان من تقاليدهم ان ما يصيب القافلة من نجاح او فشل يتوقف على الطلقة الاولى التي تطلق من بندقية بعد الشروع في السير فاذا اصابت فالرحلة ناجحة واذا اخطأت فالفشل نصيبها فاوجسوا شراً من تعرضي للظبي لئلا اخطئهُ فيحل بهم ما يحذرونهُ ولو علمت ذلك قبلاً لما كنت اقل منهم حذراً ولا بقيت اطلاق بندقيتي الى ان نبلغ الفاشر في ختام الرحلة

واستأجرت جمالة آخرين من سيوه للذهاب الى الجغبوب وهي على اربعة ايام من سيوه فالتقينا في منتصف الطريق بالسيد ادريس السنوسي آتياً الى مصر فاعطاني مكاتيب توصية الى ابن عمه السيد محمد العابد في الكفرة والى وكلائهِ في الجغبوب وجالو والكفرة . ولمعرفتي القديمة بالسيد ادريس الشأن الاكبر في نجاح هذه الرحلة والرحلة التي سبقتها الى الكفرة سنة ١٩٢١ . ولما ودعتهُ دعا لي ولرجالي بالتوفيق فاصر رجالي على السير في الطريق الذي جاء فيهِ تبركاً ولو كان اطول من غيره فوافقهم على ذلك

ولما بلغنا الجغبوب رحب بنا السيد حسين وكيل السيد ادريس وسائر الاخوان

[وهنا استطرد حسين بك الى ذكر السنوسية وتاريخها ثم قال]

لم استطع ان اغادر الجغبوب الا بعد اكثر من شهر لما وجدتهُ من الصعوبة في استئجار الجمال فاقمت فيها ٣٤ يوماً كانت ايام سكينة وسرور وغادرتها والسعد في خدمتي حسب رأي اهل البادية لان يوم مغادرتها كان يوم زوبعة رملية (هبوب) . ولعلهم جروا في اعتقادهم هذا على قول من قال اذا لم يكن لك ما تريد فأرد ما يكون . والمسافة من الجغبوب الى جالو سبعة ايام لكننا اضطررنا ان نقطعها في اثني عشر يوماً بسبب تلك الزوبعة . يطلع النهار والسماء صافية الاديم لا دليل على زوبعة ولا على ريح والصحراء منبسطة امامنا كانها تبسم لنا فتسير القافلة متهادية ثم يهب نسيم عليل ينعش النفوس وبعد قليل يزيد جرأة فتلتفت واذا وجه الصحراء قد تغير كأن انا بيب من البخار انتشرت افواهها تحتهُ وشرعت تقذف بخارها فيثب الرمل بهِ ويدور على نفسهِ ويصعد في الهواء كأن في الارض قوة دافعة تدفع رملها وتدفع ما فيهِ من الحصى فتصيب الارجل والافخاذ . وتعلو اعاصير الرمال وتلطم الوجوه والرؤوس . ويطبق الجو حتى لا نرى من القافلة الا اقرب جمالها الينا ثم لا تلبث الريح ان تصير رمالاً وحصباء تعمي العيون وتلطم الرؤوس والابدان والسعيد من هبت تلك الريح في ظهره

لا في وجههِ لان الرمل ينخس الوجوه كالابر ولا يستطيع المسافر ان يغمض عينيهِ لان الضلال في تلك الفدافد شرّ من الزوبعة

لكن العاصفة لم تكن متصلة الاوصال بل كان فيها فواصل كانها هبات تأتي ثلاثاً او رباعاً وبينها فترات تطول بضع ثوان فاذا بدأت الهبة ادار المرء وجههُ وبسط كوفيتهُ امامهُ ليقيهُ منها واذا جاءت الفترة ابعد الكوفية وتنفس والتفت ليرى طريقهُ واستعد للهبة التالية كأن وحشاً هائلاً من الوحوش الخرافية كان يتنفس فيقذف الرمل في وجوه الناس او كأن اصابع جبار مرّت على اوتار مشدودة « فحنت كأنها مرزاة ثكلى ترن وتعول »

واذا لقي المرء زوبعة رملية (هبوباً) فلا سبيل لهُ الا ان يواصل السير لانهُ اذا اعترضها شيء ثابت عموداً كان او جملاً او انساناً تراكم رملها حولهُ وصار بهِ كثيباً فاذا كان السير في الزوبعة الرملية اليماً فالوقوف فيها موتاً زؤاماً

وقد يطول امد الزوبعة خمس ساعات او ستاً وحينئذ لا بد للقافلة من متابعة السير بتأن وحذر لئلا تضل الطريق واذا بلغت اشدها مشيت الجمال مشياً وئيداً عالمة ان في الوقوف عن السير الموت المحتوم بدليل انها تقف عن السير وتبرك حالما يقع المطر

ومن شأن الزوبعة انها تسفي الرمل وتدخله في كل خروب رحلك فيصل الى الثياب والزاد والآلات والادوات وتشعر بهِ وتتنفسهُ وتأكلهُ وتشربهُ وتكرههُ وتغتاظ منهُ وادق اجزائهِ يدخل مسام بدنك فتشعر بحكة مؤلمة

بعد ما جزنا بئر ابو سلامه وهي على مرحلة من الجغبوب سرنا في ارض فيها بقايا اشجار متحجرة فكنا نرى منها من وقت الى آخر قطعاً منصوبة في الصحراء اعلاماً للسابلة كأنها اجزاع شجر ماثلة نقلتها الطبيعة من عالم النبات الى عالم الجماد واذا سقط واحد منها فالعرف العام بين البدو يقضي بنصبها ثانية لاهتداء القوافل

بلغنا جالو في الخامس من شهر مارس وهي اهم الواحات هناك لجودة ثمرها ولانها محطة قوافل التجار الآتية من ودّاي ودارفور بطريق الكفرة ومعها ريش النعام والجلود من ودّاي ودارفور تأتي بها الى جالو لتنقل منها الى مصر شرقاً او بنغازي شمالاً

واكثر التجار من قبيلة المجابرة وهم كبار التجار في صحراء ليبيا ويفتخر الواحد

منهم ان اباه مات على الباسور (رحل البعير) كما يفتخر ابن الجندي بان اباهُ قضى في حومة الوغى

والقوافل تهيأ وتصلح ما فيها من خلل وهي في جالو استعداداً للسير الى الكفرة ففي رحلتي الاولى اليها سنة ١٩٢١ اهتم السيد ادريس بتدبير لوازم السفر كرماً منهُ فكان لذلك شأن كبير في نفوس البدو فاضعف ما فيهم من شكوك ومنعهم من التعرض لنا بسوء اما الآن فاضطررت ان ادبر امر الجمال وكانت كثيرة لكثرة ما معنا من الامتعة ولاسيما الآلات العلمية التي عليها يتوقف نجاح الرحلة . والرحلة السابقة كانت في الفصل المناسب من السنة اما هذه فاخرتني العوائق عن جعلها في ذلك الفصل

اقمت في جالو عشرة ايام استعد لقطع قفر لاماء فيهِ وقبول الدعوات لولائم وجوه جالو وايلام الولائم لهم . واهم من ذلك الارصاد التي رصدتها هناك فرصدت الشمس والنجوم لمعرفة مكان الواحة بالتدقيق ودونت درجات البارومتر والثرمومتر لمعرفة الارتفاع وكان رولفس قد وجد سنة ١٨٧٩ ان ارتفاع جالو مثل ارتفاع سطح البحر فثبت لي من المقابلة بالارصاد التي رصدتها في سيوه ان جالو صارت الآن أعلى مما كانت في زمن رولفس ستين متراً ورأيت تعليل ذلك ميسوراً بما تسفيه الرمال فاني وجدتها قائمة حول جذوع الاشجار والى جانب الجدران تكاد تدفنها حتى اضطر بعض السكان ان ينقلوا بيوتهم الى اماكن مرتفعة فان البيت الذي كنت فيه حيث دوّنت قراءات البارومتر كان يعلو فوق بيوت القرية ١٥ متراً الى ٢٠

وكنت الزم الحذر التام في ارصادي لان البدو يسيئون الظن اذا رأوا آلة كثيرة الاجزاء كالثيودوليت وشأنهم ان يقولوا حينئذ انني اقصد تخطيط البلاد لاجل التغلب عليها وفتحها . واول مرة رآني شيخ من شيوخهم استعمل الثيودوليت سألني في ذلك فاجبتهُ على الفور جواباً فاقنعهُ وهو اني ابحث عما تتبين بهِ بداءة شهر رمضان

وكان معي رجل اسمهُ عبد الله كنت اعتمد عليهِ في اخفاء اعمالي العلمية عن الذين يوجسون منها شراً وكان هذا الرجل آية في تسكين الخواطر . كنت مرة استعمل الثيودوليت وانا في جالو فقيل لنا ما انتم فاعلون فاجابهُ عبد الله اننا نصور البلد فقال الرجل وكيف تصورونها وانتم بعاد عنها فاجابهُ عبد الله ان الآلة تجذب الصورة فتطير اليها . فقال الرجل كيف تجذب الآلة الصورة فقال عبد الله اسأل المغنطيس كيف يجذب الحديد . فسكت الرجل كانهُ افحم

وفي الخامس عشر من مارس شرعنا في السير ووجهتنا الكفرة وكان في القافلة ٣٩ جملاً و٢١ رجلا وفرس وكلب وكان الحر شديداً والقفر امامنا كبساط لا حد لهُ رمال فيها حصباء مبعثرة هنا وهناك . فسرنا قاصدين آبار الظيغن آملين ان نصل اليها في ثمانية ايام او تسعة . ورأينا في طريقنا عصائب من الطيور قاطعة شمالاً وهي معياة من العطش فقدمنا لها الماء فجعلت تجثم على ايدينا وهي تحسوه

مرت الايام في هذا القفر على هذه الصورة ننهض بعيد الفجر لان البرد اشد من ان تكفي دثرنا لتدفئة اجسامنا ويكون واحد قد أضرم النار فابادر اليها وانا ملتف بجردي وكوفيتي تغطي اذني والتفت الى ما حولي فاذا كل واحد ملتف بجرده كل وما تصل اليهِ يده من الثياب واذا كان الماء كافياً اغلي الشاي واديرت كؤوسهُ على الرجال فيشربونهُ ويشردون في اعمالهم . يذهب رجلان لاطعام الجمال تمراً يابساً فتقضمهُ هو ونواه ويتذاكر الجمالة احياناً في امر حمولتها اذا رأوا منها ما يستدعي ذلك اما بالتخفيف عن واحد والتثقيل على آخر او بتغيير حزمها . ويقوض بعضهم الخيام وهي ثلاث تنصب في زوايا مثلث والجمال في وسطهِ . وانا أكون قد التفت الى البارومتر والثرمومتر ودونت درجاتهما في يوميتي العلمية ووضعت شرائط جديدة في آلات التصوير الشمسي . واصوات الرجال خافتة لان الكوفيات حول افواههم . ويكون الطعام قد تهيأ فنفطر عصيدة أو ارزاً وما من احد يحجم من اكلة الصباح وهو في القفر كما يحجم وهو في المدن . وتتبع العصيدة بثلاث كؤوس من الشاي تشرب حسواً . اذا اردت ان يعمل رجالك عملهم في القفر بهمة ونشاط اطعمهم الى الشبع واسقهم الشاي ودعهم يشربونهُ على هينتهم ابخل عليهم او استعجلهم فيصبك منهم الضرر بدل النفع

بعد الاكل يشعر كل احد بالدفء فتحمل الجمال والتفت انا الى الدليل فيرسم لي خطاً على الرمل يقول اننا نسير فيهِ فاتحقق جهتهُ بالحك وهو ينظر اليَّ حاسباً ما افعله سخافة لا تنفع ولكنها لا تضر . والغالب ان لا داعي لهذا التحقيق لان هذا الدليل واسمهُ ابو حسن لا يخطىء السير كأنهُ حمام الزاجل ولا يتردد الا في الظهيرة قائلاً « انهُ متى كانت الشمس عاليـة وخيالي بين قدمي يدور رأسي » ويضل احياناً بين غروب الشمس وطلوع النجوم وقد رأيت دليلاً مرة حاد عن الطريق تسعين درجة في ذلك الوقت .

(مقتطف يونيو سنة ١٩٢٥)

٢

قبل ان نباشر السير يدفىء الرجال ايديهم وارجلهم على النار ويحتذون نعالهم ثم يسيرون خلف جمالهم وهم يغنون ويكون وهج الشمس قد اشتد فيجعل كل احد يبعد عن اذنيهِ وعنقهِ ما لفها بهِ اتقاء البرد ثم يخلع جرده ايضاً الا اذا هبت الريح شمالية . ويتبارى الرجال في النكت والجري وامارات البشر على وجوههم . وينقسمون اثنين اثنين او ثلاثة ثلاثة يتحدثون في امورهم الخاصة والعامة . وانا اسير امام الجمال او وراءها من وقت الى آخر لكي اتحقق اننا غير مخطئين في اتجاهنا ولكي اشعر بلذة الانفراد . ووقت الغذاء لانحط الرحال لان الجمال لاتأكل الا مرتين في اليوم فاذا كنا قد خرجنا من واح وخبزنا طري تناول كل منا رغيفاً او نصف رغيف فاكله وهو ماشٍ مع قليل من التمر . وبعد ذلك يجف الخبز ثم ينفد فنكتفي بالتمر لانهُ معنا دائماً

وقد كان معي جمل على رحلهِ حوانجي حتى اذا اضناني التعب اصعد اليهِ واستلقي فيهِ فاطلق عليهِ احد رجالي اسم « الكلوب » . استفقدوني ذات يوم وقت الغداء وسأل بعضهم عبد الله ان كنت قد اخذت حصتي من الخبز والتمر فقال ان البك يتغدى اليوم في « الكلوب » ولا يصعب على المرء ان يقيل في الهودج ولكن السير وراء الجمال سهل لان معدل سيرها ميلان ونصف ميل في الساعة والركوب حينئذ اصعب من المشي

وبعد الظهر يشتد الحر ويبطىء سير الجمال والرجال . ونحو المساء يبرد الهواء فتسرع الجمال ولا سيما قبلما تحط الرحال ويحدوها الرجال فتزيد سرعة

وحالما تغرب الشمس ادنو من الدليل واسألهُ عن الجهات والبوصلة في يدي مخافة ان نضل بين غروب الشمس وظهور النجوم . وحينما يرخي الليل سدوله نضيء مصباحاً يسير بهِ الدليل امام القافلة . والظاهر ان الجمال تسر برؤية المصباح امامها فتنشط لاتباعهِ

اذا كانت الامور ميسرة كلها مشينا اثنتي عشرة ساعة الى ثلاث عشرة وإلا اكتفينا باقل من ذلك وفي نهاية المرحلة آمر بالوقوف فتبرك الجمال حالاً لترفع الاحمال عنها . ولا بدَّ من اتخاذ الحيطة التامة حينئذ لان الرجال يكونون متعبين فلا يعنون بانزال الاحمال وما فيها من الآلات الدقيقة . واذا خيف من اشتداد الريح ليلاً وضعت الاحمال بعضها فوق بعض لتكون سداً في وجه الريح وتنصب الخيام في مثلث

وتضرم النار ويغلى الشاي وحينئذ نعرف قيمتهُ . والبدو يحضرونهُ باغلاء حفنة منهُ وحفنة من السكر في نحو رطلين من الماء فيكون لهُ فعل عجيب في انعاش المتعب من السفر وانهاض قوتهِ . ويسرع الرجال في تقديم العلف الى جمالهم وتحضير العشاء وتناوله ثم يستلقون وينامون اما انا فاقابل بين الساعات الست التي معي واديرها واكتب على الصور الفوتوغرافية التي صورتها والروامين الجيولوجية التي جمعتها واغير الشرائط في آلة التصوير للسنما واكتب يوميتي

بلغنا بئر الظيغن في السادس والعشرين من مارس واقمنا يوماً هناك بسبب الهبوب . والراسخ في الاذهان ان الصحارى ثابتة على حال واحدة على كرور الازمان ولكن ليس الامر كذلك . فلما سار رولفس الى الكفرة سنة ١٨٧٩ قال انهُ وجد في طريقهِ بالسماع من العرب بقعة خضراء واسعة اما الآن فليس هناك الا قليل من النخل في بئر الحرش وكثير من الحطب . وما قاله رولفس يؤيده ابو حليقة من الكفرة فقد قال لي أنهُ لما كان صغيراً كان ابوه يأخذه معهُ الى الكفرة حينما يذهب لجلب التمر منها وكانت تلك المسافة تقطع في خمس ليال وثلاثة ايام وحينما يبلغون الظيغن تجد دوابهم عشباً ترعاه . فما ذكره رولفس صحيح ولكن تغيرت الحال في خمسة واربعين سنة وسبب ذلك فيما يظهر نضب المياه الارضية فصار ما كان نابتاً هناك حطباً يابساً

ان سيرنا من بئر ابي الطفل الى الظيغن اثبت لنا خطأ ما يقدره الانسان في قطع الصحارى فاننا اتخذنا الحيطة من كل وجه ومع ذلك نفد وقودنا ومات جمل من جمالنا ورزح جملان آخران ونفد علف الجمال فجعلنا نطعمها من الظيغن الى الكفرة من خوص النخل الذي قطعناه من الظيغن وهو علف لا يغذي

ورصدت الشمس في الظيغن بالثيودوليت مراراً فثبت لي بالحساب ان الظيغن ابعد الى جهة شرق الشمال الشرقي ١٠٠ كيلو متر مما قالهُ رولفس . وكان قولهُ مبنياً على ما قالهُ لهُ الادلة وهو في تسربو لا على ارصاد فلكية ووجدت ان ارتفاع الظيغن ٣١٠ امتار فوق سطح البحر

ومن الظيغن الى هواري اربعة مراحل وهي ابعد واحات الكفرة شمالاً وقد لقينا في منتصف الطريق اشد الزوابع الرملية التي صادفتها في حياتي . عصفت الرياح فجأة بعد نصف الليل بثلاث ساعات ونصف ساعة ولم يكن الا قليل حتى قوّضت خيامنا ووقعت خيمتي على رأسي وجعلت الرياح تسفي الرمال عليها وتزيد ثقلها ثقلاً حتى كدت

اختنق ولكنني مسكت باحد الاوتاد ورفعت بهِ بعض الخيمة عن وجهي وبقيت على هذه الحال ساعتين وكان الرمل يدخل من فروج الخيمة ويصل اليَّ كرصاص البنادق وذاقت الجمالة والجمال من الشدة امرها . ووجدت في الصباح ان اكثر آلاتي قد تهشم وانكسر خرنومتري الصغير ولو اصاب عمود الخيمة خرنومتري الكبير لكسره ولكانت النتائج العلمية من رحلتي غير ما هي الآن . وهذا العمود لم يخطئه الا جزءاً صغيراً من البوصة . ومن ثم يظهر ما للصدف من اليد في نجاح الروّاد . استرحنا يوماً في هواري بعد العاصفة ثم استأنفنا السير الى الكفرة

في الوصول الى الكفرة شيء يستوقف النظر مشينا اليها في ارض متموجة تنطوي امام السائر كالسجل يحيط بها نجد قليل الارتفاع يتكون منه افقها . وبينما المرء سائر ينكشف هذا النجد امامهُ عن مبان لايكاد يفرق بينها وبين الصخور والرمال لشدة الشبه بين الفريقين شكلاً ولوناً . هذه مدينة التاج مقر البيت السنوسي في الكفرة . حينما دخلناها رأينا الارض وراءنا تغيب عن نظرنا فجأة ويقوم مقامها وادي الكفرة . وهو غور قطره الاطول اربعون كيلو متراً والاقصر عشرون ترصعهُ اشجار النخيل وتنتظم فيهِ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ست محلات وهي بويما وبوما وجوف والزردق وطلالب وطلاب . والى جانب جوف بحيرة واسعة يترقرق ماؤها الازرق فيبهج النظر . وهذا الماء الغزير وفي وسط قفر اجرد نعمة لم تكمل لانهُ ملح ولقد وجدنا في الاغتسال فيهِ لذة لم نجدها في بحر ولا في نهر ولا في حمام

لما دخلنا التاج لاقانا الاصدقاء بمزيد الترحاب . كان السيد محمد العابد ابن عم السيد ادريس رئيس السنوسيين في كفرة مريضاً بالنقرس فاستقبلنا السيد صالح البسكري والقائمقام والسيد محمود الجداوي ووكيل السيد ادريس وكثيرون من الاخوان وحيونا باسم السيد العابد وساروا بنا الى دار السيد ادريس وقد نزلت فيها في رحلتي الاولى الى الكفرة منذ سنتين فشعرت الآن كانني في بيتي ولم أكد استريح من وعثاء السفر حتى جاءني عبد من قبل السيد العابد ليذهب بي اليهِ للعشاء وهو نفس العبد الذي مشى بي منذ سنتين فسرنا في الطريق الذي سرنا فيهِ اولا الى البيت الذي دخلناه حينئذ فخيل اليَّ ان الزمان انتفى من الوجود او رجع بنا القهقرى

بيت العابد لغز من الالغاز سراديب وراءها الغرف التي يسكن فيها اهله وخدمهُ . وصلنا بها الى غرفة دخلتها قبلاً ارضها مغطاة بالبسط الفاخر والوسائد المطرزة وعلى

جدرانها الساعات الدقاقة والبارومترات والثرمومترات التي يفاخر فيها مضيفي . اما الساعات وهي اثنتا عشرة على الاقل من اقدار مختلفة فلا انتظام في سيرها واذا دقت لم تدق معاً بل بعضها بعد بعض فتذكرني بساعات الكنائس والابراج في اكسفورد حينما كنت اسمعها وهي على ابعاد مختلفة فيأتي صوت الواحدة بعد صوت الاخرى . وجاء السيد صالح البسكرى ليسليني ويعتذر عن السيد العابد ثم جيء بالطعام وهو مما تشتاقه الآلهة او البشر الذين قضوا وقتاً طويلا في القفر الاجرد . رز مفلفل وحمل حنيذ وخضراوات مطبوخة وخبز سميذ ولبن رائب وحلوى بدوية ثم القهوة ولبن ممزوج برب اللوز وثلاث كؤوس من الشاي مطيبة بالعنبر وماء الورد والنعناع

استرحت يوماً ثم جلت في وادي الكفرة فزرت القرى والزاوية وهي اقدم مدارس السنوسي واول بناء بني في الكفرة . وزرت السوق التي تقام كل اسبوع يرى الانسان فيها اشياء متباينة معروضة معاً فيرى مثلا خرطوش البنادق وتاريخهُ منذ ثلاثين سنة والى جانبهِ مربى الطماطم الايطالي وارداً من بنغازي واقمشة بيضاء وزرقاء واردة من مصر والجلود والعاج وريش النعام من وداي . الا ان بضائع الجنوب هذه قلّ بيعها الآن في الكفرة فلا تباع الا اذا جاء بها التجار قاصدين مصرَ او طرابلس الغرب فمنعوا من مواصلة السير لسبب من الاسباب

وقد كان عصر الكفرة التجاري قبل استرجاع السودان فانها كانت حينئذ سوق وداي ودارفور ترد المتاجر اليها وتنقل منها شمالا . والآن يصل اليها ما يمنع مروره او اصداره من السودان مثل عاج اناث الافيال والاسنان التي وزن الواحد منها اقل من ١٤ رطلا . واكثر رؤساء الزوايا الكبيرة يأتون الكفرة للزراعة فيزرعون فيها الشعير والذرة اما السنوسيين فيزرعون العنب والموز والبطيخ ونحو ذلك من الخضراوات التي يجدها المرء فاكهة منعشة بعد الضرب في الصحراء ويزرعون ايضاً النعناع والورد ويستخرجون روحيهما لانهما لازمان في تكميل شروط الضيافة . وعندهم قليل من شجر الزيتون فيعصرون الزيت منهُ . ولكن طعام البدو الذي هو قوام معيشتهم التمر ولذلك ترى النخل كثيراً في وادي الكفرة . والتمر هو الشيء الوحيد الذي يصدر من تلك الواحات . اما سائر الحاجيات والكماليات فترد الى الكفرة من الخارج كالشاي والسكر والرز والدقيق والاقمشة

والمساكن هناك بسيطة تبنى بالحجارة وتبيض من الداخل وتوضع فيها مقاعد تغطى

خروج قافلة حسنين بك من الكفرة

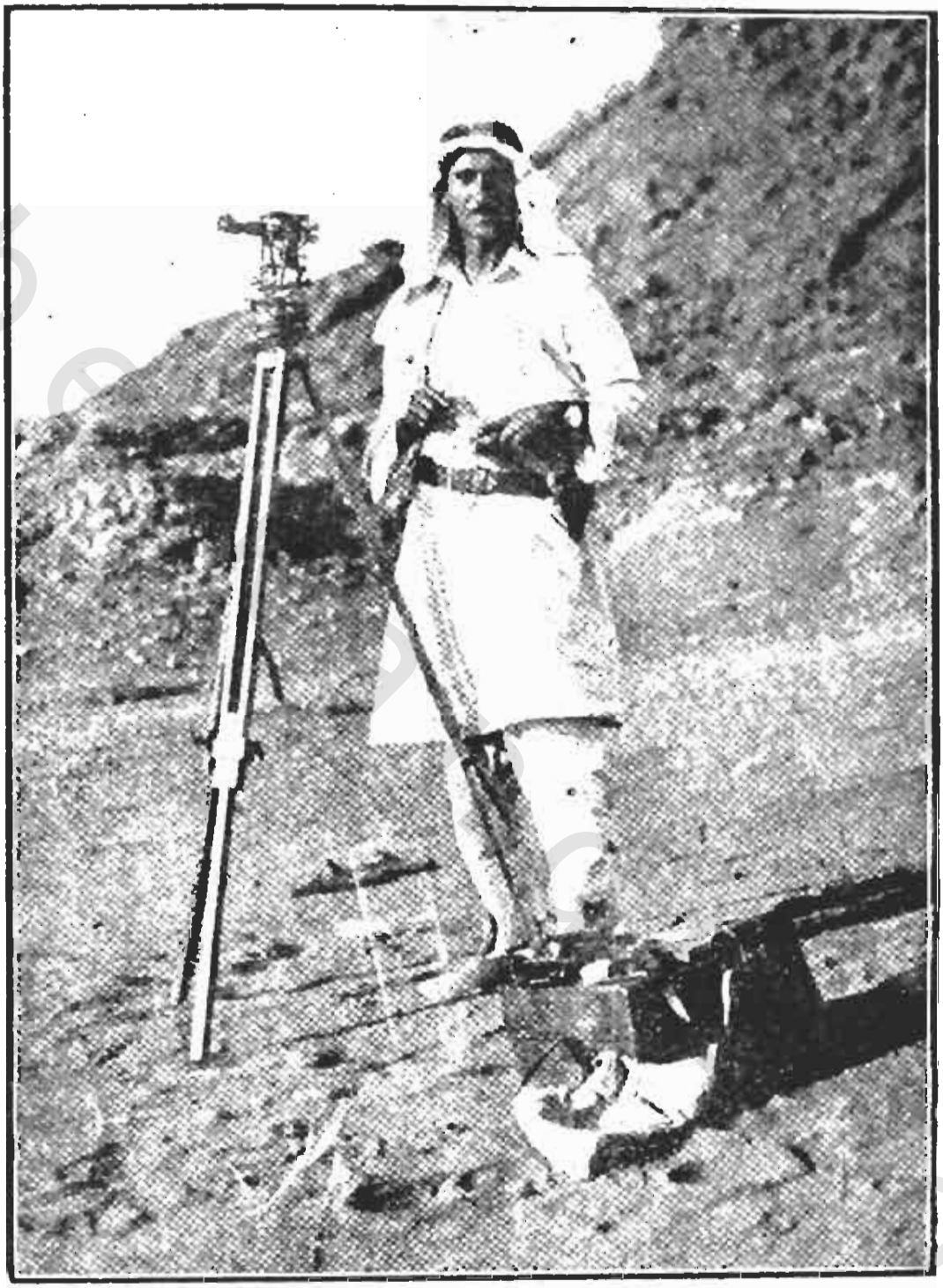

الرحالة احمد حسنين بك وامامهُ الثيودوليت

بالبسط اليدوية والمساند . واذا كان صاحب البيت غنياً وجدت فيهِ غرفة للاستقبال ارضها مغطاة بالبسط العجمية ومساند الحرير وقد يكون فيها غراموفون وصفائح عليها اغاني عربية مصرية

والاعمال اليدوية يعملها العبيد غالباً وقد غلا سعرهم حديثاً لقلة ورودهم من وادّاي . لما ذهبت الى برقة سنة ١٩١٦ عرضت عليَّ فتاة من الرقيق بمائة وعشرين فرنكا اما الآن فثمن مثلها من ٣٠ جنيهاً الى ٤٠ . والذكر ارخص من الانثى . واذا استولد رجل امة من عبيده فولدت صبياً اصبحت حرة بولادتهِ فاذا كان الرجل شيخ قبيلة وكان هذا الصبي بكره صار شيخ قبيلتهِ بعده ولو كان اسود لان لاشأن للون في اعتبارهم . ويتأنق العبيد في لبسهم كاسيادهم . ولعلي كاجا عبد السيد ادريس المنزلة العليا عنده والناس يحترمونهُ اكثر مما يحترمون كثيرين من الاحرار . ويباح للعبد ان يشتري امة . سألت علي كاجا كم ثمن العبيد الآن فقال شاكياً قد غلا سعرهم كثيراً فبالامس اشتريت جارية باربعين جنيهاً . قال ذلك كأنهُ لم يكن عبداً في زمانهِ

اقمت في الكفرة نحو ثلاثة اسابيع في ضيافة السيد العابد وغيره من الاعيان . وخلاصة مباحثي العلمية في هذه المرة ان الكفرة ابعد اربعين كيلومتراً الى جنوب الجنوب الشرقي مما اثبتهُ رولفس من ارصاد ستكر ووجدت ارتفاعها كما حققهُ رولفس اي ان ارتفاع بوما في اسفل الوادي ٤٠٠ متر وارتفاع التاج ٤٧٥ متراً

وبُعيد وصولي الى الكفرة سمعت اخباراً اضطرتني الى تغيير خطة رحلتي فقد كنت عازماً ان اذهب بطريق القوافل من الكفرة الى واداي وهو طريق لم يسلكه احد قبلي من غير اهل البلاد ولكن بلغني ان كشافة فرنسوية قدمت من وادّاي الى منتصف الطريق بين وادّاي والكفرة وسمعت اخباراً مبهمة عن الواحتين المفقودتين وقيل لي انهما الى الشرق من طريق وادّاي ولم ارلها رسماً في خريطة من الخرائط فغيرت خطة سفري وعولت على الذهاب الى السودان لعلي اكتشف هاتين الواحتين في طريقي فاكون قد عملت عملاً يذكر . وتغيير الخطة سهل فكراً ولكنهُ صعب عملاً فان ابا حليقه صاحب الجمال التي استأجرتها من جالو ليذهب معي الى وادّاي ابى ان يذهب بطريق عوينات قائلاً انهُ لا يخاطر بنفسهِ وابى ان يدع رجاله وجماله تذهب معي واتاني بسليمان ابي مطارى وهو تاجر غني ليصرّفني عن هذا الطريق فقال لي ان اخاه محمداً سار منذ ثماني سنوات في هذا الطريق فهلك هو والقافلة قتلوا على تخوم

دارفور مع انهم لم يسيروا في الطريق الذي انا عازم على السير فيهِ بل في طريق اسلم واسهل من طريق عوينات الى مريجا . اما الطريق الذي انوي الذهاب فيه فيمر في بلاد لم تطأها رجل بدوي والدفه (قفر لا ماء فيهِ) بين عوينات واردي طويلة كثيرة المخاطر فالقافلة التي تضرب فيها يرحمها الله فان جمالها تقع كما تقع العصافير في ريح السموم واذا سلمنا في الطريق فمن يعلم كيف يستقبلنا سكان البلاد التي نصل اليها فيجب ان لا اخاطر بنفسي ولا ادع الطريق السليم طريق القوافل الى واجنجا وأبشه . فشكرتهُ على نصحهِ وانا واثق انني لست عاملاً بهِ . ثم بحثت في هذا الموضوع بعد يومين مع ابي حليفه فلم يقنعني ولا اقنعته واخيراً لما رأى اصراري على الذهاب بطريق عوينات وان السيد العابد يوافقني على ذلك رضي ان يؤجرني بعض جماله باجرة الجمال كلها وان يدبر رجالا يذهبون معي فاتفقنا وانا لا اعلم ما خبئ لي في لوح القدر ولكن حب كشف المجاهل تملكني فسلمت نفسي للتقادير

في الثامن عشر من ابريل صارت قافلتنا على اهبة السفر فاتى كثيرون من الاخوان ورؤساء البدو لتوديعي وودع رجالي اصدقاؤهم وهم يحسبون انهُ الوداع الاخير ويقولون اذهبوا بحفظ الله (المقدَّر مقدر) وعسى الله ان يأخذ بيدكم ويكون معكم . قالوا ذلك قول من يرى الهلكة امام عينيهِ ويدعو للنجاة منها

. قطعنا الحيد الجنوبي فوق الكفرة فانبسطت امامنا الارض صحراء ناعمة الرمل دقيقة الحصى . وفي العشرين من ابريل قطعنا حزوناً كثيرة الحجارة ورأينا سنونة في الصباح وباشقاً في الاصيل . الليالي شديدة البرد والحر وسط النهار يزهق النفوس فصرنا نسير بعيد نصف الليل ونستريح حينما يشتد الحر . وفي الثاني والعشرين من ابريل وصلنا الى كثبان من الرمال ارتفاع الكثيب منها ثلاثة امتار الى عشرة امتار مغطاة بحجارة سوداء ثم رأينا عن يسارنا سلسلة من التلال تمتد من الشمال الى الجنوب الغربي فتقطع طريقنا فصعدنا فيها واذا امامنا نجد سرنا فيهِ النهار كلهُ واسمهُ وادي المحاريج ورأينا هناك قشوراً من بيض النعام واتاني رجل من رجالي بفرخيْ نسر فامرتهُ ان يردهما الى عشهما

وفي الثالث والعشرين من ابريل وصلنا الى كثبان من الرمل المنهار عسرة المرتقى وجزنا غور فوراو ورأينا جبال اركنو ممتدة امامنا

مر بنا ثمانية ايام لم ننم في اليوم منها اكثر من اربع ساعات وحالما كنا نشرع في

السير كنت ارى رجالي يغمضون عيونهم وينامون على الرمال ولو نصف ساعة والجمال تابعة الدليل ومصباحهُ الضئيل اما انا فقلقي على الآتي كان يحرمني من النوم معهم

ولقد كابدنا مشقة كبيرة في قطع كثبان الرمال العائمة امامنا ولم نكد نتم قطعها حتى قابلتنا الجبال كأنها من قلاع العصور الوسطى وقد كاد ضباب الصباح يحجبها عن عيوننا وبعد دقائق قليلة حولت الشمس ذلك الضباب الاغبر الى شعاع وردي . وفي الرابع والعشرين من ابريل قطعنا ٣٧ كيلومتراً فبلغنا جبل اركنو

اركنو جبل من الحجر المحبب (الغرانيت) يعلو خمسماية متر عن سطح الصحراء المجاورة لهُ وهو قنن مخروطية متصلة من اسفلها . بلغناه من طرفهِ الغربي وسرنا حول هذا الطرف فوصلنا الى مدخل وادٍ فيهِ متجه شرقاً وقرب مدخلهِ شجرة وحيدة من

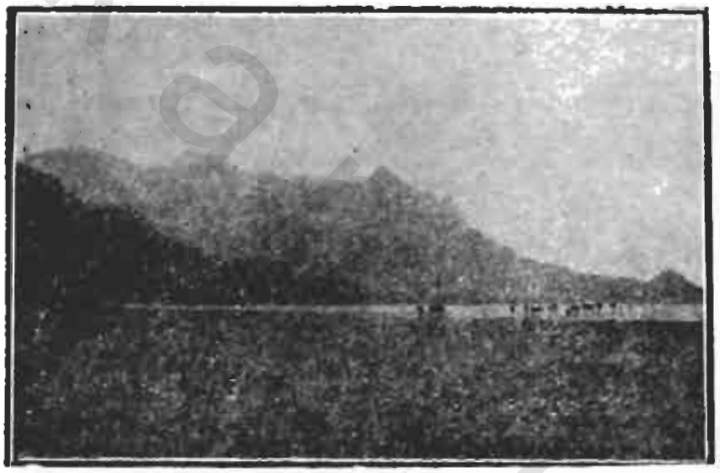

جبل اركنو

نوع يسمى هناك شجر الاركنو وقد اطلق اسمهُ على الالواح التي هناك فنصبنا خيامنا الى جانب هذه الشجرة وارسلنا الجمال الى الوادي لتشرب وتأتينا بالماء وكنا في حاجة شديدة اليهِ . وللحال اتانا اناس سود من سكان تلك البلاد فأحسنا ملتقاهم ودعوناهم للاكل مع رجالي . الجبل قاحل لا ينتظر ان يكون فيهِ واد خصب مسكون والواقع ان هؤلاء الناس لا يقيمون فيهِ السنة كلها بل يأتونهُ بجمالهم في فصل الربيع اربع فيهِ ثلاثة اشهر ويتركونها فيهِ وحدها بعد ان يسدوا مدخل الوادي بالصخور

وواحة اركنو هي اولى الواحتين المفقودتين اللتين سمعت اخبارهما وكان من نصيبي ان اكون الاول في رسمها . وقد يصير لهذا الوادي شأن حربي في المستقبل لانهُ واقع في ملتقى نخم مصر الغربي بتخمها الجنوبي . مقتطف يوليو سنة ١٩٢٥

٣

وفي ٢٨ من ابريل بدأنا سرانا لان للسرى ليلاً مزية على السير نهاراً يرى المسافر الوقت ينقضي سريعاً الا اذا كان قد اضناهُ التعب ويرى لهُ من النجوم رفيقاً انيساً يسليهِ اذا كان من عاشقي الطبيعة . وكنا نرى جبال عوينات في الافق قائمة امامنا فنطمئن اليها لان السآمة تزول اذا كان امام المرء غرض محدود يسعى اليهِ بدلاً من ان يسير في عرض القفر على غير هدى لا يرى امامهُ الا ابعاداً شاسعة لا حدَّ لها . ولما دنونا من تلك الجبال ظهرت الشمس فوقها وافاضت على قننها من اشعتها الذهبية فالقت على الارض ظلاً ظليلاً كنا نراهُ يتقلص ويقصر رويداً رويداً بدنونا من الجبال فنصبنا خيامنا عند الزاوية الشمالية الغربية وهناك شعب في طرفهِ عين ماء والجبل قائم على جانبيهِ كشاهق تسند قدميهِ حجارة كبيرة وصغيرة فعلت بها انياب الدهر فازالت زواياها وسحتها سحتاً . والعين ليست ينبوعاً جارياً بل قِلتٌ في الصخر تتجمع فيهِ مياه المطر

وقمنا في الصباح وصعدنا في الجبل الى العين الكبرى وهي غزيرة المياه طيبتها تحيط بها قصباء دقيقة القصب . وفي اخريات النهار امعنا في الواحة حتى اذا كان منتصف الليل دخلنا وادياً تحيط بهِ التلال عن يسارنا والجبل عن يميننا . والوادي ناعم الرمل كثير الحجارة السير فيهِ شاق على الجمال . ووقفنا عند الفجر صلينا الصبح وشربنا الشاي حتى اذا كانت الساعة السابعة دخلنا وادياً واسعاً بين جبلين شاهقين ارضهُ منبسطة كالكف وفيهِ عشب واشجار من السنط والنجم اذا مرثت اوراقها بيدك شممت لها رائحة كرائحة النعناع . وهناك كثير من نبات الحنظل وهو عريض الورق لهُ ثمر اصفر مستدير كالليمون الكبير الحجم يغلي السكان بزرهُ حتى تزول مرارتهُ ثم يسحنونهُ مع التمر والجراد في هواوين من الخشب ومنهُ اكثر طعامهم

ونصبنا خيامنا الساعة العاشرة وغنا ثم قمنا واكلنا وسرت انا لاشاهد آثار الانسان في العصور الخالية فاذا هناك رسوم حيوانات منقوشة في الصخر تجد فيها رسم الاسد والزرافة والنعامة وانواع الغزال ورسوماً كالبقر . والنقش غائر في الصخر من ربع بوصة الى نصف بوصة . ولم اقف على تاريخ لهذه النقوش . ومما الفت نظري بنوع خاص امران الاول ان الزرافة لا تقطن تلك البلاد الآن ولا توجد في قفر مثل هذا

القفر ان ليس بين هذه الرسوم رسم الجمل مع انهُ يستحيل على المرء ان يصل الى هناك الا اذا كان الجمل مطيتهُ . فهل كان الذين نقشوا هذه الصور يعرفون النعامة ولا يعرفون الجمل مع ان الجمل أدخل الى افريقية من اسيا نحو سنة ٥٠٠ قبل المسيح . ولم ارَ هناك من انواع الصيد الا الغزال والضأن الجبلي ونوعاً صغيراً من الثعلب رمادي اللون

عدنا الى خيامنا صباح الثاني من مايو فوجدنا الشيخ هري في انتظارنا ويلقب بملك العوينات مع ان سكانها ١٥٠ نفساً . وقد اتفقت معهُ لكي يرافقنا الى اردي كدليل وقمنا من هناك مساء الاحد في السادس من مايو وسرنا في ارض منبسطة وهي رمال تغطيها الحصى وهنا وهناك شيء من الحشيش فكانت جمالنا تتقوت بهِ فقطعنا ٥٤ كيلومتراً في ١٢ ساعة

وفي التاسع من مايو كنا سائرين فشعرت نحو الساعة الثامنة ليلاً ان الريح تهب في وجهي وكان الجو مطيفاً بالغيوم فالتفت الى الحك (البوصلة) واذا نحن سائرون الى جهة الشمال الشرقي بدل الجنوب الغربي فاتضح لي ان دليلنا سكّر اضاع رأسهُ . وهنا مشكل تجب مداواتهُ بالحكمة لئلا يفقد الدليل ثقتهُ بنفسهِ . وزاد الطين بلة ان ثارت زوبعة رملية اطفأت المصباح الذي يسير بهِ امامنا فاختلط الحابل بالنابل واشتدّ عصف الرياح وادرك كل أحدٍ اننا ضللنا السبيل فصممت على السير مسترشداً بالحك واضأنا المصباح وسرت في المقدمة والحك في يدي وبعد ساعات قليلة هدأت العاصفة فاذا نحن بين كثبان من الرمال

وفي العاشر من مايو بلغنا الجرد وهي مرتفعات من الرمال جوانبها تكاد تكون قائمة تسير الجمال عليها فتغوص فيها الى الركب . وفي الثاني عشر منهُ شرعنا في السير الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر وقطعنا سبعين كيلو متراً دفعة واحدة ثم حططنا رحالنا قبيل الساعة العاشرة صباحاً وارسلنا الجمال الى التلال المجاورة لترعى فيها

وفي الرابع عشر صار همنا الاكبر الوصول الى اردي لان ماءنا كاد ينفد وكلت جمالنا من التعب ورأى اثنان من رجالنا اثار وَرل فاقتفياهُ الى حجره وبحثا عنهُ وامسكاهُ وهو لا يعض ولكن ذنبهُ كالسوط فيضرب بهِ . والبدو والزنوج يستعملون دهنهُ دواءً لداء المفاصل ويقولون ان رأسهُ عوذة تقي من السحر. وهنا كثرت الاودية

وهي كثيرة الكلإ والحشيش دليلاً على اننا دنونا من اردي ولكننا لم نر تلالها الحمراء الاصباح السادس عشر من مايو . وأجمع رأينا على النزول في وادي اردي نفسهِ لا فوقهُ لكي نكون على مقربة من الماء مخافة من طارق يفاجئنا ونحن بعاد عنهُ فصعدنا حيداً الى ان بلغنا اعلاهُ فاشرفنا منهُ على وادي اردي وهو ضيق طولهُ ٨ كيلومترات وعرضهُ نحو ١٠٠ متر تحيط بهِ صخور شاهقة حمراء اللون فابتهجنا برؤية ما فيهِ من الاشجار الغبياء والمروج الخضراء . وهذا الوادي غير نافذ وفيهِ بئر تغطيها الصخور وهي بركة كنصف دائرة طولها ستة امتار وعرضها ثلاثة ومن رأيي ان ماءها خليط من ماء المطر ومن ماء نابع في الارض . والوادي جميل بما فيهِ من الخضرة وما يحيط بهِ من الصخور الحمراء القائمة حولهُ كالجدران

وهنا حذّرنا دليلانا من السفر ليلاً لكثرة ما في البلاد من التلال والوهاد فقمنا في السابع عشر من مايو الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين صباحاً ولما خرجنا من الوادي رأيت الفرق الكبير بينها وبين اودية اركنو والعوينات فان ارض الاودية هناك على ارتفاع الارض حول الجبل واما هنا فالوادي اعمق من السهل الذي حول الجبل . ولما خرجنا منهُ جزنا في ارض جبلية صخورها سوداء وحمراء وقبلما انقضت مرحلتنا رأينا تلال اجاه في الافق وبلغنا وادي اجاه في العشرين من الشهر ولم نر في وادي حتى الآن ما رأيناهُ فيهِ من كثرة الاشجار والنباتات . والبئر فيهِ مثل بئر اردي ولكن الجمال والقطعان عبثت بمائها فافسدتهُ . والطيور كثيرة هنا تطرب الاذن باصواتها . واردنا ان نبتاع بعض الخرفان من السكان فابوا حاسبين ذلك عاراً عليهم لكنهم اهدوا الينا ثلاثة خرفان ضيافة وابوا ان يأخذوا ثمنها فاهدينا اليهم مقاطيع من البفت الازرق فسرّوا بها

واستأنفنا السير في ٢١ مايو قبل غياب النجوم واذا امامنا ثلاثة غزلان فتبعها ثلاثة من رجالنا واطلق حامد بندقيتهُ على واحد منها فاخطأه لكنهُ اقسم بالله انهُ اصابهُ ورأى الدم يفور من بدنهِ . ولما جلسنا الظهر للغداء جرح واحد يده وهو يقطع بضعة من الخروف الذى شويناه لغدائنا فسألتهُ من اين هذا الدم فاجاب آخر هذا من غزال حامد فقهقه الرجال مسرورين . وبعد الغداء كنت ادير ساعاتي واكتب قراءات البارومتر والثرمومترين اللذين يدل احدهما على اعلى درجات الحرارة والآخر

على اوطأها واذا بحامد يعدو الينا وهو يقول انهُ رأى سرباً من النعام فامسكنا بنادقنا استعداداً لها فمرت بنا وهي نحو ثلاثين او اربعين نعامة فاطلق الرجال بنادقهم عليها وهي لا تزال بعيدة وعدا حامد وامسك بعنق واحدة منها فضربتهُ برجلها في خاصرتهِ وافلتت فعاد الينا ويده على جنبهِ فسألتهُ هل آذتك فقال كلا فقلت لماذا لم تأت بها اذاً فقال لانني وجدتها انثى

وقمنا الساعة الخامسة وسرنا في الوادي ساعة من الزمان ثم صعدنا في الآكام فلما بلغنا اعلاها رأينا ذلك الوادي تحتنا كبساط من الزبرجد ترصعهُ الاشجار والانجم وبقع الرمل الوردي وتحيط بهِ صخور وتلال حمراء . ونسيم المساء يتخللهُ هديل القماري وغابت الشمس حينئذ فاكتسى الجو حلة من الارجوان لا ينساها من يراها

بلغنا اينباه في ٢٣ مايو والماء هناك عذب قراح وعليهِ جماعة من قبيلة البديات ومعهم كثير من الغنم وبعض الخيول فخرجوا لاستقبالنا فصافحهم وصبت على ايديهم قليلاً من الروائح العطرية فأتونا بالخرفان ضيافةً وجاءنا نساؤهم بالسمن والجلود ليبعنها منا لان البيع والشراء في ايدي النساء . وبينما كنت ارصد في المساء رأى الرجال الثيودوليت والمصباح الكهربائي فاوجسوا شراً ودخل احد شيوخهم خيمتي ورآني افتح صندوق آلة من آلاتي فاغلقتهُ لما رأيتهُ ولكنني انتبهت الى ما في عملي هذا من الخطأ لانني رأيت امارات الشر في وجههِ كانهُ حسب ان الصندوق مملوء ذهباً . ولما خرج من خيمتي ناديت اثنين من رجالي وامرتهما على مسمع منه ان يبتدئا دورهما في حراسة المعسكر ثم اخبرته ان لا يدع احداً من النساء او الاولاد يدنو منا لئلا يطلق رجالي الرصاص عليه خطأً . قلت ذلك لاريه اننا على حذر فاصاب قولي المرمى

وسرنا من هناك الى ان بلغنا وادياً كبيراً اسمه كوتي مينا ممتداً من الشرق الى الغرب تغطيه اشجار كبيرة وكان فيهِ جماعة من قبيلة الجرعان ووصل اليهِ ونحن هناك تاجر قادم من وادّاي ومعه بقر وغنم وهو ذاهب بها الى الفاشر . وسرنا في ٢٦ مايو مقتفين آثار الغنم والجمال الى ان بلغنا وادياً كبيراً جداً فيهِ كثير من الاشجار الظليلة اسمه كب تركو وكنا نحسب اننا نصل الى باو صباح السابع والعشرين حسب قول الدليل هري ولكن انقضى النهار ودخل الليل ولم نصل لان هذا الدليل اخطأ في تقديره . وكان ماؤنا قد نفد كله ما عدا قربة واحدة . فتابعنا السير الى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين فوصلنا الى ارض صخرية يتعذر السير فيها في ضوء القمر

وكنا على حافة وادٍ ادّعى هري انه وادي باو لكنني لم اصدقه ولم اسمح للرجال ان يشربوا ماء القربة الا حينما نبلغ مكاناً فيهِ ماء فنمنا تلك الليلة من غير عشاء لكي لا نشرب

وكان النزول الى الوادي عسراً جداً لكن كان لا بد منه فنزلنا الى ان رأينا في الوادي غنما وكوخاً فاذنت للرجال ان يشربوا ماء القربة واقبل نفر من الجرعان والبديات للقائنا ونساؤهم حسان المنظر يشتملن بثيابهن اشمالاً ويضفرن شعورهن ويتحلين بحلى من الفضة والعاج وفي اعناقهن عقود من الخرز والكهرمان والبنات يكتفين بوزرة يسترن بها عوراتهن والرجال عراة في الغالب وهم مجدولو العضل يحمل الواحد منهم حربتين او ثلاثاً وسيفاً وسكيناً يرشق بها خصمهُ رشقاً . واما شيوخهم فيرتدون اردية بيضاء ويعتمون. اعطينا النساء من المكرونة فلم يأكلنها بل نظمنها عقوداً تقلدن بها وللحال دار الاخذ والعطاء بينهن فتبادلن هذه العقود بالسمن والجلود

وقمنا من هناك في الثلاثين من مايو وانبسطت الارض امامنا وقلّت الاودية والاشجار الكبيرة ورأينا آثار الاسد . وبلغنا وادي هور في اول يونيو وهو كنصف دائرة وفيهِ اشجار كبيرة وارض زراعية كارض مصر . والارض بعده قليلة الشجر ولكنها كثيرة العشب . ومررنا امام تلة تسمى تاميرا على رأسها شجرة يابسة وهي الحد الفاصل بين وادّاي والسودان

ونهضنا في الثاني من يونيو باكراً لكي نصل الى فوروية ذلك اليوم فررنا في الساعة الخامسة صباحاً امام حجر كمرارا وكان على عشرة كيلو مترات عن يميننا وبعد ساعة مررنا امام حجر اردو وهو تل ارتفاعهُ نحو ٨٠ متراً وطوله ٢٠٠ متر . والحجر بلغة السودان الاكمة الصغيرة . ثم نزلنا الى وادي فوروية وهو اكبر وادٍ وآهل وادٍ مررنا بهِ في رحلتنا حتى الآن وسكانهُ من الزغاوى وقليل من البديات . وكنا ننتظر ان نجد طعاماً في هذا الوادي فلم نجد وكان سكرنا قد نفد منذ ثلاثة اسابيع فكنا نحلي الشاي بدقيق التمر . ونفد ايضاً ما معنا من الدقيق والرز ولم يبق معنا الا المكرونة فعافتها نفوسنا . فكتبت الى سئيل باشا حاكم دارفور في الفاشر ليرسل الينا طعاماً وثياباً لرجالي لان ثيابهم صارت اخلاقاً وارسلت الكتاب مع رسول استأجرتهُ بعد عناء كثير

اقمنا في فوروية ثلاثة ايام وكانت السماء تمطر كل يوم واكثر رجالي من اكل اللحم ولكنهُ لم يغنهم من الشاي والسكر

وفي ٦ يونيو سرنا في طريق مطروق جنوباً وكنا نمر في طريقنا بقرى صغيرة بيوتها اكواخ من القش و بلغنا ام بورو في اليوم التالي فنزلنا قرب البئر ونهضنا في الصباح باكراً على صوت النعم والبقر آتية لتشرب وبعد ساعة قامت سوق الى جانب خيامنا لاننا كنا قد نصبناها ملاصقة لشجرة كبيرة وهي في وسط مكان السوق ولا يحضر السوق الا النساء فهن يبعن ويشترين بالسمن والجلد والحصر والذرة والقطن والملح يتبادلنها مبادلة والرجال مقيلون كسالى

والمرحلة التالية كانت خمسة ايام الى كُتُم قطعنا فيها ١٢٩ كيلومتراً والطريق مطروق وكنا نقوم في الصباح وننزل العصر. وفي البلاد تلال كثيرة تغطيها الاشجار والحشيش وبينها بقاع حرق هشيمها استعداداً لزرعها

وفي صباح اليوم الرابع جاءني رجل يقول انهُ رأى عن بعد عسكرياً راكباً جملاً (هجاناً) وبعد قليل وصل هذا العسكري ومعهُ كتاب من المستر تشارلس دبوي حاكم دارفور بالنيابة لان سفيل باشا كان قد استعفى ومعهُ شيء من الرز والدقيق والشاي والسكر والسكاير وقد كان سرورنا بالسكاير على اشده لان ما كان معي منها نفد كلهُ بعد خروجنا من اردي . ولما بلغنا بيت الحكومة في مرابغ جعل رجالي يغنون ويطربون واقاموا قالب السكر في وسط ساحة وجعلوا يرقصون حولهُ والعسكري ينظر اليهم مدهوشاً حاسباً انهم جنوا ولا يعرف الشوق الى السكر الا من حرمهُ اياماً متوالية

وصممت على ان نسرع السير لان مؤونتنا كادت تنفد كلها فبلغنا ضواحي كُتُم في الرابع عشر من الشهر وشاهدنا حينئذ كوكبة من الخيالة تدنو منا فقابلناها بالهتاف وكان ابهج شيء في نظري رؤية الجنود السودانيين بملابسهم العسكرية وكان في الكوكبة معاونان وعشرة جنود وقاض وكاتب وبعض وجوه كُتُم فصافحتهم كلهم وسرنا تحت لوائهم ولما دنونا من المركز خرج النساء للقائنا لابسات البياض يقرعن الدفوف وينشدن الاناشيد فدخلنا المركز واقمنا فيهِ وحولهُ وعادت النساء الينا وهن يغنين ويرقصن فسر رجالي واستأذنوني في اطلاق بنادقهم عند اقدام البنات فاذنت لهم فخاف البنات اولاً لانهن لم يألفن ذلك ولكنهن ادركن المراد حالاً واستأنفن الغناء والرقص والزغردة فزال كل ما كنا نشعر بهِ من وعثاء السفر

اقمنا يومين في ضيافة المعاونين لان المستر اركل المفتش كان في الفاشر . وقمنا في السابع عشر من يونيو فوصلنا الى الفاشر بعد يومين كانا من ايام السرور والبهجة لاننا شعرنا اننا رجعنا الى العمران الذي كنا نشتاق اليهِ . ولما صرنا على ثلاث ساعات من الفاشر نزلنا لكي نستعد لدخولها فحلقت وكان المستر دبوي قد بعث الينا مقداراً من البفت الابيض الى كُتُم فالتحف بهِ رجالي ثم استأنفنا السير واذا بكوكبة من الفرسان آتية للقائنا فصر جوادي اذنيهِ وعدا اليهم وخرج المستر دبوي على جواده للقائنا فتصافحنا مصافحة الاصدقاء ورحب بنا الضباط كلهم من انكليز ومصريين واضافنا المستر دبوي في بيتهِ . وهناك مركز للتلغراف اللاسلكي فاستعلم مديره لي عن وقت غرينتش (بانكلترا) فاذا خرونومتري لم يفقد الا ٢٣ دقيقة و٢٣ ثانية في ثمانية اشهر أي أقل من ست ثوان كل يوم . واقمت عشرة ايام في ضيافة المستر دبوي والضباط واعيان المدينة فانهم لم يتركوا وسيلة لاكرامنا . وسرنا من هناك الى الابيّض وركبت منها الى الخرطوم فالقاهرة فبلغتها في اول اغسطس سنة ١٩٢٣

***

ولا يسعني ان اختم هذه الخطبة من غير ان ابدي جزيل شكري للسردار السر لي ستاك باشا حاكم السودان العام وللمستر دبوي مدير دارفور بالنيابة وللمستر كرايج مدير كردفان ولكل الضباط والموظفين والاعيان في حكومة السودان على ما لقيت منهم من العناية وحسن الضيافة انتهى

(مقتطف اغسطس سنة ١٩٢٥)